

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ

٩



شرح حديث جبريل عليه السلام

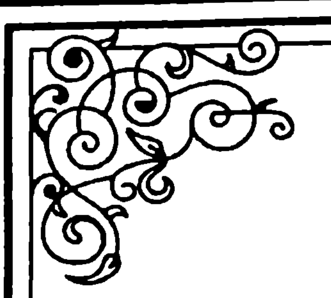
لفضيلة الشيخ العلامة

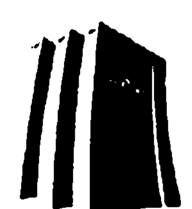
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين
الخيرية







سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٩)



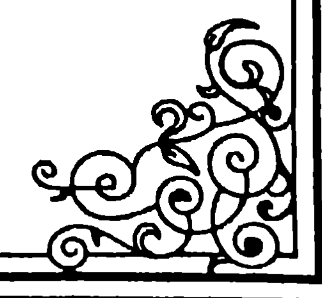
لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ابن عثيمين ، محمد بن صالح
شرح حديث جبريل عليه السلام ./ محمد بن صالح العثيمين ؛ فهد ناصر السليمان .
ط ٣ - الرياض، ١٤٣٤هـ
١١٨ص، ١٢×١٧سم (سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ابن عثيمين؛ ٩)
ردمك : ٠-١-٩٠٤٨٥-٦٠٣-٩٧٨
١- الإسلام. ٢- الإيمان (الإسلام). أ. السليمان ، فهد ناصر (جامع).
ب. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٤/٨٥٧٨

رقم الإيداع : ١٤٣٤/٨٥٧٨
ردمك : ٠-١-٩٠٤٨٥-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة ١٤٣٧ هـ

يطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
القصيم-عنيزة ٥١٩١١ ص.ب ١٩٢٩
هاتف: ٣٦٤٢١٠٧ /٠١٦
فاكس: ٣٦٤٢٠٠٩ /٠١٦
جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
جوال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.com
E.mail: info@binothaimeen.com

رقم الإيداع في دار الكتب المصرية ٩٤٩٢ / ٢٠١٢
الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الـذرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد
متفرع من مصطفى النحاس بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ محمول ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

نص الحديث

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينما نحن عند رسـول الله، ﷺ، ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لايرى عليه أثر السفر، ولايعرفه منَّا أحد، حتى جلس إلى النبي، ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه قال: يامحمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله، ﷺ: «الإسلام، أن تشهد أن لا إلـه إلاَّ الله، وأنَ محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضـان، وتحـج البيت إن استطعت إليـه سبيـلاً». قال: صدقت. قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيـمان؟ قال: «أن تؤمن بالله، ومـلائكته، وكتبه، ورسله، واليـوم الآخـر، وتؤمن بالقـدر خيره وشره». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنـه يراك». قال: فأخـبرني عن السـاعة؟ قال: «مـاالمسئـول عنهـا بأعلم من السـائـل». قال: فأخـبرني عن أمـاراتهـا؟ قال: «أن تلد الأَمَة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العُراة

العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان». قال: ثم انطلق فلبثت مليًّا ثم قال لي: «ياعمر أتدري من السائل»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم».[١]

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بالهدى، ودين الحق، فبلَّغَ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمّة وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

أيها الأخوة المؤمنون: سأل جبريل النبي، ﷺ، عن الإيمان بعد أن سأله عن الإسلام قال فأخبرني عن الإيمان؟ فقال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».**[٢]

والإيمان هو: «الاعتراف المستلزم للقبول والإذعان، أما مجرد أن يؤمن الإنسان بالشيء بدون أن يكون لديه قبول وإذعان، فهذا ليس بإيمان، بدليل أن المشركين مؤمنون بوجود الله ومؤمنون

---

(١) رواه البخاري جـ٣ ص٢٢٦ كتاب الجهاد ومسلم جـ١ ص١٠٦ كتاب الإيمان.
(٢) رواه مسلم جـ١ ص٣٦ كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام.

بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر للأمور، وكذلك أيضًا فإن الواحد منهم قد يُقرُّ برسالة النبي، ﷺ، ولايكون مؤمنًا، فهذا أبو طالب عم النبي، ﷺ، كان يقر بأن النبي، ﷺ، صادق وأن دينه حق يقول:

لقد علموا أن ابننا لامكذب
لدينا ولايعنى بقول الأباطل

وهذا البيت عن لاميته المشهورة الطويلة التي قال عنها ابن كثير: ينبغي أن تكون إحدى المعلَقات في الكعبة، ويقول أيضًا:

ولقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة
لرأيتني سمحًا بذاك مبينًا

فهذا إقرار بأن دين الرسول، ﷺ، حق، لكن لم ينفعه ذلك، لأنه لم يقبله ولم يذعن له فكان ـ والعياذ بالله ـ بعد شفاعة النبي، ﷺ، في ضحضاح من نار، وله نعلان من نار يغلي منهما دماغه ـ نسأل الله تعالى أن يعافينا وإياكم من النار ـ وهو أهون الناس عذابًا لكنه يرى أنه أشدهم عذابًا، وكونه يرى أنه

أشدهم عذابًا فهذا تعذيب نفسي قلبي، لأن الإنسان إذا رأى غيره مثله في العـذاب أو دونه يهون عليه ماهو فيه، ولهذا قال تعـالى: ﴿ولَنْ ينفعكُم اليـوم إذ ظَلمتم أنكم في العـذاب مُشْتركون﴾. . [سورة الزخرف، الآية: ٣٩].

وعلى هذا فنقول: إن الإيمان ليس مجرد الاعتراف، بل لابد من الاعـتراف المستلزم للقبـول والإذعـان، ولقـد عجبت أيما عجب حينما صعد جاجارين الروسي إلى الفضاء، وقال بعد أن صعـد الفضـاء ورأى وشاهد الآيات العظيمة، قال: إن لهذا الكون مدبرًا، ومع ذلك فلم يؤمن.

* * *

الركن الأول : الإيمان بالله

قال رسول الله، ﷺ: «أن تؤمن بالله». والإيمان بالله ـ عز وجل ـ يتضمن الإيمان بأربعة أمور:

الإيمان بالله، والإيمان بربوبية الله، والإيمان بألوهية الله، والإيمان بأسمائه وصفاته.

أولا: الإيمان بوجود الله:

وهو أن تؤمن بأن الله تعالى موجود، والدليل على وجوده العقل، والحس والفطرة، والشرع.

أولا : الدليل العقلي : فالدليل العقلي على وجود الله ـ عز وجل ـ أن نقول: هذا الكون الذي أمامنا ونشاهده على هذا النظام البديع الذي لايمكن أن يضطرب ولا يتصادم ولايسقط بعضه بعضًا بل هو في غاية مايكون من النظام **﴿لَا الشَّمسُ ينبغي لها أن تُدركَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار﴾**. [سورة الزخرف، الآية: ٤٠]. فهل يعقل أن هذا الكون العظيم بهذا النظام البديع يكون خالقًا لِنَفْسِه؟ كلا لايعقل، لأنه لايمكن أن يكون خالقًا لنفسه إذ أن معنى ذلك أنه عدم أوجد موجودًا، ولايمكن للعدم

أن يوجد موجودًا، إذن فيستحيل أن يكون هذا الكون موجدًا لنفسه، ولايمكن أيضًا أن يكون هذا الكون العظيم وجد صدفة، لأنه على نظام بديع مضطرد، وماجاء صدفة فالغالب أنه لايضطرد ولايمكن أن يأتي صدفة لكن على التنزل.

ويذكر عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وكان معروفًا بالذكاء أنه جاءه قوم دهريون يقولون له: أثبت لنا وجود الله فقال: دعوني أفكِّر، ثم قال لهم: إني أفكِّر في سفينة أرست في ميناء دجلة وعليها حمل فنُزل الحمل بدون حمَّال، وانصرفت السفينة بدون قائد، فقالوا كيف تقول مثل ذلك الكلام فإن ذلك لايعقل ولايمكن أن نصدقه؟ فقال: إذا كنتم لاتصدقون بها فكيف تصدقون بهذه الشمس، والقمر، والنجوم، والسماء، والأرض، كيف يمكن أن تصدِّقوا أنها وجدت بدون موجد؟!.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل العقلي بقوله: ﴿أَمْ خُلقوا من غَيْر شيء أم هُمْ الخالقُون﴾. [سورة الطور، الآية: ٣٥].

وسُئل أعرابي فقيل له: بم عرفت ربك؟ والأعرابي لا يعرف إلا ماكان أمامه فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟ بلى.

ثانيًا: وأما الدليل الحسي: فهو مانشاهده من إجابة الدعاء مثلاً فالإنسان يدعو الله ويقول ياالله فيجيب الله دعاءه ويشكف سوءه ويحصل له المطلوب وهو إنما قال: ياالله إذن هناك رب سمع دعاءه، وأجابه، وماأكثر مانقرأ نحن المسلمين في كتاب الله أنه استجاب لأنبياء الله: ﴿وَنُوحًا إذ نادَى من قبل فاستجبنا له﴾، [سورة الأنبياء، الآية: ٧٦]. ﴿وأيُّوب إذ نادى ربَّهُ أنِّي مسَّني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له﴾. [سورة الأنبياء، الآية: ٨٣]. والآيات في هذا كثيرة والواقع يشهد بهذا.

ثالثًا: الدليل الفطري: وأما الدليل الفطري: فإن الإنسان بطبيعته إذا أصابه الضر قال: (ياالله) حتى إننا حُدثنا أن بعض الكفَّار الموجودين الملحدين إذا أصابه الشيء المهلك بغتة يقول على فلتات لسانه: (ياالله) من غير أن يشعر، لأن فطرة الإنسان تدله على وجود الرب ـ عز وجل ـ، ﴿وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾. [سورة الأعراف، الآية: ١٧٢].

رابعًا: الدليل الشرعي: وأما الأدلة الشريعة فحدث ولاحرج، كل الشرع إذا تأمّله الإنسان علم أن الذي أنزله

وشرعه هو الرب ـ عز وجل ـ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن ولو كانَ مِنْ عند غَير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً﴾. [سورة النساء، الآية: ٨٢]. فائتلاف القرآن وعدم تناقضه وتصديق بعضه بعضًا كل ذلك يدل على أن القرآن نزل من عند الله ـ عز وجل ـ وكون هذا الدين بل كون جميع الأديان التي أنزلها الله ـ عز وجل ـ موافقة تماماً لمصالح العباد دليل أنها من عند الله ـ عز وجل ـ.

ولكن حصل على جميع الأديان تحريف وتبديل وتغيير من المخالفين لشرائعه: ﴿يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه﴾. [سورة النساء، الآية: ٤٦]. لكن الدين الذي نزل على الأنبياء كله يشهد بوجود الله ـ عز وجل ـ وحكمته وعلمه.

ثانيا: الإيمان بربوبيته:

ومعنى (الرب): أي الخالق، والمالك، والمدبر، فهذا معنى ربوبية الله ـ عز وجل ـ، ولايغني واحد من هذه الثلاثة عن الآخر، فهو الخالق الذي أوجد الأشياء من عدم ﴿بديع السَّموات والأرض﴾. [سورة البقرة، الآية: ١١٧]. ، ﴿الحمد لله فَاطِر السموَات والأرض﴾. [سورة فاطر، الآية: ١]. فالذي أوجد الكون من العدم هو الله الخالق، المالك أي خلق الخلق وانفرد

بملكه له كما انفرد بخلقه له، وتأمَّل قول الله ـ تعالى ـ في سورة الفاتحة: ﴿مالك يَوْمِ الدِّين﴾. وفي قراءة أخرى سبعية: ﴿مَلِك يَوْمِ الدِّين﴾. [سورة الفاتحة، الآية: ٤]. وهي قراءة سبعية متواترة، وإذا جمعت بين القراءتين ظهر معنى بديع، الملك أبلغ من المالك في السلطة والسيطرة، لكن الملك أحيانًا يكون ملكًا بالاسم لا بالتصرف، وحينئذٍ يكون ملكًا غير مالك، فإذا اجتمع أن الله تعالى: مَلِك ومالك تم بذلك الأمر: الملك، والتدبير.

ولهذا نقول: إن الله ـ عز وجل ـ منفرد بالملك، كما انفرد بالخلق، كذلك أيضًا منفرد بالتدبير، فهو المدبِّر لجميع الأمور وهذا بإقرار المشركين، فإنهم إذا سُئلوا من يدبِّر الأمور؟ فسيقولون: الله فهو المنفرد بالتدبير: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماء إلى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إليْهِ﴾. [سورة السجدة، الآية: ٥].

سُئل أعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وصرف الهمم. فالإنسان يعزم أحيانًا على الشيء عزمًا وتصميمًا أكيدًا وفي لحظة يجد نفسه قد عزم على تركه ونقض العزم، وقد يهم الإنسان بالشيء متجهًا إليه ثم ينصرف بدون سبب، وهذا يدل على أن للأشياء مدبرًا فوق تدبيرك أنت، وهو الله ـ عز وجل ـ.

فإن قال قائل: كيف تقول إن الله منفرد بالخلق، مع أنه أثبت الخلق للمخلوق وسمى المخلوق خالقًا. قال سبحانه: ﴿**ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾. [سورة المؤمنون، الآية: ١٤]. وفي الحديث عن النبي، ﷺ، يقال للمصورين: «**أحيوا ماخلقتم**»؟.

فالجواب: أن خلق الإنسان ليس خلقًا في الحقيقة، لأن الخلق هو الإيجاد من العدم، والإنسان عندما يخلق لايُوجد من عدم، لكن يغير الشيء من صورة إلى صورة أخرى.

وكذلك (الملك) فإن قال قائل: كيف تقول: إن الله منفرد بالملك مع أن الله ـ سبحانه ـ أثبت الملك لغيره فقال: ﴿**إلَّا عَلَى أزواجهم أو ماملكت أيمانُهُم**﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٦]. وقال: ﴿**أو ماملكتم مفاتحه**﴾؟ [سورة النور، الآية: ٦١].

فالجواب: أن يقال: إن مُلك الإنسان ليس كملك الله، لأن ملك الله ـ عز وجل ـ شامل لكل شيء، ولأن ملك الله ـ تعالى ـ ملك مطلق غير مقيد، أما ملك الإنسان للشيء فهو غير شامل، فمثلًا الساعة التي معي لاتملكها أنت، والساعة التي معك لاأملكها أنا، فهو ملك محدود ليس شاملًا، كذلك أيضا ليس ملكًا مطلقًا فأنا لايمكنني أن أتصرف في ساعتي كما أريد،

لأنني مقيد بالشرع الذي هو المصلحة، فلو أراد إنسان تكسير ساعته مثلًا فإن ذلك لايجوز ولايملك شرعًا أن يفعل ذلك، لأن النبي، ﷺ، نهى عن إضاعة المال فكيف بإتلافه؟

ولهذا قال العلماء: إن الرجل لو كان بالغًا عاقلًا له زوجة وأولاد، وهو سفيه في المال لايتصرف فيه تصرف الرشيد فإنه يحجر على ماله.

لكن الله ـ عز وجل ـ يتصرَّف في ملكه كما يشاء، يحيي ويميت، ويمرض ويشفي، ويغني ويفقر، ويفعل مايشاء على أننا نؤمن بأنه ـ عز وجل ـ لايفعل الشيء إلا لحكمة.

إذن فهناك فارق بين ملك الخالق وملك المخلوق. وبهذا عرفنا أن قولنا: إن الله منفرد بالملك قول صحيح لايستثني منه شيء.

وكذلك التدبير، فإنه قد يكون للإنسان، فإنه يدبر مثل أن يدبِّر خادمه أو مملوكه، أو سيارته، أو ماشيته فله تدبير، لكن هذا التدبير ليس كتدبير الله، فهو تدبير ناقص ومحدود. ناقص إذ لايملك التدبير المطلق في ماله فأحيانا يدبِّر البعير لكن البعير تعصيه، وأحيانًا يدبِّر الإنسان ابنه فيعصيه كذلك، وكذلك هو تدبير معدود فلا يمكن أن يدبر الإنسان إلا ماله السيطرة

والسلطة عليه التي جعلها الشارع له وبهذا صح أن نقول: إن الله منفرد بالتدبير كما قلنا إنه منفرد بالخلق، والملك.

ثالثا: الإيمان بألوهيته:

وهـو أن يؤمن الإنسـان بأنـه سبحانه هو الإله الحق، وأنه لايشـاركه أحد في هذا الحق لاملك مقرَّب، ولا نبي مرسل، ولهذا كانت دعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم هي الدعوة إلى قول: (لا إلـه إلا الله). ﴿**وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليـه أنَّـه لا إلـه إلا أنـا فاعبدون**﴾. [سورة الأنبياء، الآية: ٢٥]. ﴿**ولقد بعثنا في كل أمَّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾. [سورة النحل، الآية: ٣٦].

لو أن أحدًا آمن بوجود الله، وآمن بربوبية الله، ولكنه يعبد مع الله غيره فلا يكـون مؤمنًا بالله حتى يفرده ـ سبحانه ـ بالألوهية.

وقد يقول قائل: إن الله ـ تعالى ـ أثبت وصف الألوهية لغيره فقال ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿**أئفكا آلهة دون الله تريدون**﴾. [سـورة الصافات، الآية: ٨٦]. وقال تعالى: ﴿**ولاتدع مع الله إلهًا آخـر**﴾. [سـورة القصص، الآية: ٨٨]. إلى غير ذلك من الآيات فكيف يصح أن تقول: إن الله متفرِّد بالألوهية؟

فالجـواب: أن الألوهية المثبة لغير الله ألوهية باطلة، ولهذا صح نفيها نفيًا مطلقًا في مثل قول الرسل عليهم الصلاة والسلام لأقوامهم: ﴿اعْبُدوا الله مالكُم من إله غيْرُه﴾، [سورة الأعراف، الآية: ٥٩]. لأنها آلهــة باطلة: ﴿ذَلِـكَ بأنَّ الله هُوَ الحقُّ وأنَّ مايدْعُونَ من دُونِه هُوَ الْبَاطِلُ وأنَّ الله هُوَ العَلي الكبير﴾. [سورة الحج، الآية: ٦٢].

رابعا: الإيمان بأسمائه وصفاته:

وهـذا معـترك الفرق المنتسبة للإسلام بالنسبة لإفراد الله ـ تعالى ـ بالأسماء والصفات، فقد انقسموا إلى فرق شتى أصولها ثلاثة:

الأول: الإيمان بالأسماء دون الصفات.

الثاني: الإيمان بالأسماء والصفات.

الثالث: الإيمان بالأسماء وبعض الصفات.

وهناك غلاة ينكرون حتى الأسماء، فيقولون «إن الله ـ عز وجل ـ ليس له أسماء ولاصفات» لكننا تركناها لأنها متشعبة.

السلف الصالح الذين كانوا على ماكان عليه النبي، ﷺ، وأصحابه يقرون بالأسماء والصفات اتباعًا لما جاء في كلام الله ـ

عز وجل ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿ولله الأسْمَاء الحُسنى فادْعُوه بها﴾.
[سورة الأعراف، الآية: ١٨٠]وهذا دليل إثبات الأسماء لله تعالى، وأما دليل إثبات الصفات فقوله ـ تعالى ـ ﴿ولله المثلُ الأعلى﴾.
[سورة النحل، الآية: ٦٠]. ومعنى ﴿المثل الأعلى﴾ أي الوصف الأكمل، ففي الآيتين عمومان: أحدهما: في الأسماء. والآخر: في الصفات. أما التفاصيل فكثيرة في القرآن والسنة.

وهناك من يثبت الأسماء دون الصفات فيقول: إن الله سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وهذا هو المشهور في مذهب المعتزلة.

والفريق الثالث: يثبت الأسماء وبعض الصفات، فيثبت من الصفات سبعًا وينكر الباقي، والسبع هي:

١ ـ الحياة.
٢ ـ والعلم.
٣ ـ والقدرة.
٤ ـ والسمع.
٥ ـ والبصر.
٦ ـ والإرادة.
٧ ـ الكلام.

جمعها السفاريني في عقيدته بقوله:

له الحياة والكلام والبصر سمع إرادة وعلم واقتدر
بقدرة تعلقت بممكن كذا إرادة

يقولون: إن هذه الصفات دل عليها العقل فنثبتها، وما عداها فالعقل لايدل عليها فلا نثبتها.

فيقولون: إن الموجودات دالة على إيجاد، والإيجاد يدل على القدرة، فلا يمكن إيجاد بلا قدرة وهذا دليل عقلي، ويقولون إن التخصيص يدل على إرادة أي كون هذه شمس، وهذا قمر، وهذه سماء، وهذه أرض كل ذلك يدل على إرادة وأن الذي خلقها أراد أن تكون على هذا الوجه، وهذا دليل عقلي أيضًا.

وإذا نظرنا في الخلق وجدناه خلقًا محكمًا متقنًا، والإحكام يدل على العلم، لأن الجاهل لايتقن.

فثبتت الآن ثلاث صفات: القدرة، والإرادة، والعلم.

ثم قالوا: إن هذه الثلاث لاتقوم إلا بحي ومن ثم ثبت أنه حي، فالحي إما أن يكون سميعًا بصيرًا متكلمًا، أو أعمى أصمًا أخرسًا، والصمم، والعمي، والخرس صفات نقص، والسمع، والبصر، والكلام صفات كمال، فوجب ثبوت الكمال للحي.

فهـذه أدلتهم وهي أدلة عقلية، فلذلك أثبتوا هذه الصفات السبع.

فإذا قيل له: تُثبت لله رحمة؟ قال: لاأثبت له الرحمة، لأني أفسرها بما أعتقد وأقول: الرحمة إرادة الإحسان، أو هو الإحسان نفسه، فلا يفسرها بصفة.

ولكن نقول: هذا خطأ بل نحن نستدل بالعقل على ثبوت الـرحمة بما نشاهد من آثارها، فالنعم التي لاتعد، والنقم التي تدفع عنًا هي بسبب الرحمة، ودلالة هذه النعم على صفة الرحمة أقوى من دلالة التخصيص على صفة الإرادة، لأن دلالة هذه النعم على الرحمة يعرفها العامي والخاص، ومع هذا فينكر هؤلاء صفة الرحمة ويثبتون صفة الإرادة.

وبـذلك تعرف أن كل من حاد عن طريق السلف فهو في تناقض مطرد، لأن الباطل لايأتلف أبدًا: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾. [سورة النساء، الآية: ٨٢]

وموقفنا نحن من الإيمان بأسماء الله وصفاته، أن نثبت ماأثبته الله لنفسـه من الأسماء والصفات، وأن ننزه هذا الإثبات عن محظورين عظيمـين وهمـا: التمثيل، والتكييف، ودليل ذلـك السمع والعقل قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾. [سورة الشورى،

الآية: ١١]. ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾. [سورة النحل، الآية: ٧٤]. ﴿هل تعلم له سميًّا﴾، [سورة مريم، الآية: ٩٥]. ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢٢]والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

أما العقل، فإننا نقول: لا يعقل أبدًا أن يكون الخالق مماثلاً للمخلوق لما بينهما من التباين العظيم، فالخالق موجَد، والمخلوق موجِد، والخالق أزلي أبدي الوجود، والمخلوق جائز الوجود قابل للفناء بل هو فان قال ـ تعالى ـ: ﴿كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾. [سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧].

قال بعض السلف ـ رحمهم الله ـ: إذا قرأت هذه الآية: ﴿كلٌّ من عليها فان﴾. [سورة الرحمن، الآية: ٢٦]. فلا تقف عليها فصلها بما بعدها: ﴿ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾. [سورة الرحمن، الآية: ٢٧]. ليتميز الفرقان المبين بين الخالق والمخلوق، وليعرف كمال الله ـ عز وجل ـ ونقص ماسواه.

لكن لو قال لنا قائل: مما وصف الله به نفسه أن له وجه كما قال سبحانه: ﴿ويبقى وجه ربك﴾. [سورة الرحمن، الآية: ٢٧].

وأنا لا أعقل من الوجه إلا مثل وجه المخلوق فيلزم من إثبات الوجه لله التمثيل، لأن القرآن عربي، والوجه هو مايتعارف بين الناس وأكمل الوجوه وجوه البشر، فوجه الله كوجه الإنسان مثلاً فماذ نقول له؟

نقول له: إن هذا الفهم فهم خاطيء، لأن الوجه مضاف إلى الله، والمضاف بحسب المضاف إليه، فوجه الله يليق بالله، ووجه الإنسان يليق بالإنسان، ونقول له أيضًا: أنت لك وجه، والأسد له وجه، والهر له وجه، فإذا قلنا وجه الإنسان، ووجه الأسد، ووجه الهر، فهل يلزم من ذلك التماثل؟! فلا أحد يقول: إن وجهه يماثل وجه الهر، أو الأسد أبدًا.

إذن نعرف من هذا أن الوجه بحسب مايضاف إليه، فإثباتنا لصفات الله ـ عز وجل ـ لايستلزم إبدًا المماثلة بين الخالق والمخلوق بدليل السمع وبدليل العقل.

الثاني: التكييف: أي أن صفات الله ـ عز وجل ـ لاتكيف تقديرًا بالجنان ولا نطقًا باللسان، ودليل ذلك سمعي وعقلي أيضًا.

الدليل السمعي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا يحيطون به علما﴾،

[سورة طه، الآية: ١١٠]وقوله: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢٥٥]. على أحد التفسيرين وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قل إنما حرَّم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٣٣]وقوله: ﴿ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣٦]. فمن كيَّف صفة الله فقد قال على الله مالا يعلم.

أما الدليل العقلي لامتناع التكييف فإننا نقول: لايمكن لأي إنسان أن يعرف كيفية الشيء إلا بمشاهدته، أو مشاهدة نظيره، أو الخبر الصادق عنه.

مثل: لو أني شاهدت مسجلًا بعينه فإني أعرف كيفيته لأنني شاهدته بعيني أو مشاهدة نظيره مثل أن يأتيني رجل ويقول: عندي سيارة واشتريتها موديل ٨٨ مثلًا، وصفتها كذا، ولونها كذا، فإنه يمكني معرفة هذه السيارة، مع أني لم أشاهدها، لأني أعرف نظيرها وأشاهده.

ومثال الخبر الصادق عندي مثل: أن يأتيني رجل ويقول عندي بعير صفته كذا وكذا، وعليه الوسم الفلاني، فهذا عرفت

كيفيته بالخبر الصادق.

إذا طبَّقنا هذه القاعدة العقلية على صفات الله ـ عز وجل ـ، فإنه لايمكن أن نعرف صفات الله ـ عز وجل ـ بهذه الوسائل الثلاث، لأننا لم نشاهد ولم نشاهد نظيراً ولم نخبر عنه.

ولهذا قال بعض العلماء إذا قال لك الجهمي: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كيف ينزل؟.

فقل: إن الله أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل، فعلينا أن نؤمن بما بلغنا وأن نمسك عمَّا لم يبلغنا. ونظير ذلك قول مالك ـ رحمه الله ـ حين سأله سائل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾. [سورة، طه الآية: ٥]. كيف استوى؟ فأطرق الإمام مالك برأسه تعظيمًا لهذا السؤال وتحملاً وتحسبًا له حتى علاه الرحضاء ـ أي العرق ـ ثم رفع رأسه وقال قولته الشهيرة التي تعتبر ميزانًا لجميع الصفات قال له: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

فكل من سأل عن كيفية صفة من صفات الله قلنا له: أنت مبتدع فوظيفتك أن تؤمن بما بلغك وتسكت عمَّا لم يبلغك.

الركن الثاني : الإيمان بالملائكة

الملائكة: جمع ملك وأصل (ملك) كما يقول النحويون الذين يحللون ألفاظ اللغة العربية يقولون: أصله (مألك)، ثم زحزحت الهمزة إلى مكان اللام وقدمت اللام فصار (ملأك)، ثم حذفت الهمزة للتخفيف فصار (ملك) لماذا؟ قالوا: لأن ملائكة مأخوذة من (ألالوكة) وهي الرسالة والهمزة في (ألالوكة) مقدمة على اللام.

فالملائكة إذن هم الرسل كما قال الله ـ تعالى ـ: **﴿جاعل الملائكة رسلا﴾**. [سورة فاطر، الآية: ١].

وإذا أردنا أن نعرفهم نقول: هم عالم غيبي خلقهم الله ـ عز وجل ـ من نور: **﴿يسبحون الليل والنهار لايفترون﴾**. [سورة الأنبياء، الآية: ٢٠]. يقومون بأمر الله، **﴿لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون﴾**. [سورة التحريم، الآية: ٦].

والإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة، فهذا مرتبته في الدين، ومن أنكر الملائكة فهو كافر، لأنه مكذِّب لله، ورسوله، وإجماع المسلمين.

كيف نؤمن بالملائكة؟

نؤمن بهم **أولاً**: بأسماء من عِلْمنَا اسمه منهم، **ثانيًا**: بأوصاف من علمنا وصفه، **ثالثًا**: بأعمال من علمنا عملهم.

أولاً: نؤمن بأسماء من علمنا اسمه: كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، ورضوان، وملك الموت، ومنكر، ونكير، فجبريل، وميكائيل، وإسرافيل كل منهم موكل بما فيه الحياة:

فجبريل: موكل بما فيه حياة القلوب وهو الوحي، لأن جبريل هو الذي جعله الله ـ تعالى ـ وكيلاً في نزول الوحي على الرسل، كما قال ـ تعالى ـ: **﴿نزلَ به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مُبين﴾**. [سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ ـ ١٩٥].

وإسرافيل: موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الأجساد عند البعث.

وأما: ميكائيل: فهو موكل بالقطر، والنبات، وبالقطر والنبات تكون حياة الأرض.

ولهذا جمع النبي، ﷺ، بين هؤلاء الملائكة في حديث استفتاح صلاة الليل، فكان يستفتح صلاة الليل بقوله: **«اللهم رب جبرائيل، وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات**

والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم﴾.

وأما (مالك): فهو موكل بالنار لقوله ـ تعالى ـ عن أهل النار: **﴿ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾**. [سورة الزخرف، الآية: ٧٧]. [سورة الزخرف، الآية: ٧٧].

وأما (رضوان): فموكل بالجنة واسمه هذا ليس ثابتًا ثبوتًا واضحًا كثبوت مالك لكنه مشهور عند أهل العلم بهذا الاسم، والله أعلم.

وأما السادس (ملك الموت): وقد اشتهر أن اسمه «عزرائيل»، لكنه لم يصح. إنما ورد هذا في آثار إسرائيلية لاتوجب أن نؤمن بهذا الاسم، فنسمي من وكل بالموت بـ (ملك الموت) كما سمّاه الله ـ عز وجل ـ في قوله: **﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾**. [سورة السجدة، الآية: ١١].

والسابع والثامن وهما (منكر ونكير): وهما الملكان اللذان يسألان الميت في قبره، وقد ورد في ذلك حديث في الترمذي ضعفه بعض العلماء وقال إنه لايمكن أن يطلق اسم (منكر

ونكير) على الملائكة الذين: ﴿لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون﴾. [سورة التحريم، الآية: ٦].

على كل حال فهما الملكان اللذان يسألان الميت عن ربه، ودينه، ونبيه.

ثانيًا: الإيمان بأوصاف من علمنا وصفه:

علمنا بما صح عن النبي، عليه الصلاة والسلام، أنه رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح قد سدَّ الأفق، وهذا يدل على عظمته، ومع ذلك فإنه من الممكن أن يأتي على غير هذه الصفة، كما أتى على صورة رجل شديد البياض، شديد سواد الشعر، كما في الحديث الذي نحن بصدد شرحه، وجاء مرة على صورة دحية الكلبي، ولكن هذا التحول من الصورة التي عليها إلى صورة البشر إنما كان بأمر الله، وقد تمثَّل جبريل بشرًا لمريم بنت عمران كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشرًا سويًّا﴾. [سورة مريم، الآية: ١٧].

ومن أهم مايجب الإيمان به أن نؤمن بأن كل شخص معه ملكان يكتبان عمله كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إذ يتلقى المتلقِّيانِ عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ

عتيد﴾. [سورة ق، الآيتان: ١٧، ١٨]. رقيب حاضر من هؤلاء الملائكة.

فإياك أيها المسلم أن يكتب هذان الملكان عنك مايسوؤك يوم القيامة فكل شيء تقوله وتلفظ به فإنه مكتوب عليك: ﴿مايلفظ من قول﴾. سواء كان لك، أو عليك، أو لغوًا لا لك ولا عليك، فاحرص ياأخي على ضبط اللسان حتى لايكتب عليك كلمات تسوؤك يوم القيامة. ولما دخلوا على الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وكان مريضًا فإذا هو يئن أنين المريض فقيل له ياأبا عبدالله: «إن طاووسًا ـ وهو أحد التابعين ـ يقول إن أنين المريض يكتب عليه» فأمسك عن الأنين. فأنين المريض قد يكتب عليه، فما يلفظ الإنسان من قول إلا لديه رقيب عتيد يكتب عمله، وإذا كان يوم القيامة يخرج له كتابه: ﴿يلقاه منشورًا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا﴾.

[سورةالإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤].

الركن الثالث : الإيمان بالكتب

الركن الثالث وهو الإيمان بكتب الله ـ عز وجل ـ التي أنزلها على الرسل، وما من رسول إلا أنزل الله معه كتابًا قال ـ تعالى ـ: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان**﴾. [سورة الحديد، الآية: ٢٥]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾. [سورة البقرة، الآية : ٢١٣]. فما من رسول إلا أنزل الله معه كتابًا يهتدي به الناس.

كيف نؤمن بالكتب؟

الإيمان بالكتب: أن نؤمن بما علمنا اسمه باسمه، والذي علمنا اسمه من هذه الكتب: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى ـ إن قلنا أنها غير التوراة ـ ومالم نعلم اسمه نؤمن به إجمالاً، لأن الله تعالى لايضيع خلقه بل أنزل عليهم الكتب ليبين لهم الحق، هذا من حيث الإيمان بالكتب.

أما من حيث قبول ماجاء فيها من خبر، فيجب أن نقبل كل ماجاء في هذه الكتب من الخبر، ولكن لايعني أن نقبل كل خبر فيها الآن، لأنها دخلها التحريف والتغيير والتبديل، لكن نقول إننا نؤمن بكل خبر جاء في التوراة، أو في الإنجيل، أو في الزبور، أو في صحف إبراهيم.

مثال ذلك: في صحف إبراهيم: «لاتزر وازرة وزر أخرى وأن لَّيْسَ للإنسان إلا ماسعى» وعلمنا ذلك من قوله ـ تعالى ـ: ﴿أم لم يُنَبَّأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفَّى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾. [سورة النجم، الآيات: ٣٦-٤١]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خيرٌ وأبقى إن هذا لفي الصُّحف الأولى صُحِفِ إبراهيم وموسى﴾. [سورة الأعلى، الآيات: ١٦ ـ ١٩].

فما صحَّ من هذه الكتب فإنه يجب علينا أن نقبل خبره بدون تفصيل هذا بالنسبة للأخبار.

أما بالنسبة للأحكام ـ أي مافي الكتب المنزلة من الأحكام ـ ففيه تفصيل: فما كان في القرآن فإنه يلزمنا التعبد به، وماكان في الكتب السابقة نظرنا إن كان مخالفًا لشريعتنا فإننا لانعمل به،

لا لأنه باطل بل هو حق في زمنه، ولكننا لا يلزمنا العمل به لأنه نسخ بشريعتنا، وإن وافق شريعتنا فإننا نعمل به، لأن شريعنا أقرته وشرعته، ومالم يكن في شرعنا خلافه ولا وفاقه فإن العلماء قد اختلفوا في ذلك فمنهم من قال: هو شرع لنا. ومنهم من قال: ليس بشرع لنا.

فالذين قالوا إنه شرع لنا استدلوا بمثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٩٠]. واستدلوا كذلك بأن ماسبق من الشرائع لولا أن فيه فائدة لكان ذكره نوعًا من العبث، والراجح: أننا نعمل به.

مثال مايخالف شريعتنا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وعلى الذين هادوا حرَّمنا كل ذي ظُفُر ومن البقر والغنم حرَّمنا عليهم شحومهما إلا ماحملت ظهورهما أو الحوايا أو اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١٤٦].

فاليهود حرَّم الله عليهم كل ذي ظفر مثل الإبل، وكذلك كل ذي رجل غير مشقوقة أي مالها أصابع ولا فُرِّق بعضها من بعض فهو حرام عليهم، ومن البقر والغنم حرَّم الله عليهم شحومهما إلا ماحملت ظهورهما، أو الحوايا أو مااختلط بعظم. فهذا منسوخ بشريعتنا، فإن الله ـ تعالى ـ قد أحلَّ لنا ذلك.

وأما مثال ماوافق شريعتنا فكثير مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٨٣]. ومثل قوله تعالى الذي أشرنا إليه سابقًا: ﴿**أم لم يُنبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفَّى ألا تزِرُ وازِرَةٌ وِزْر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ماسعى. . .**﴾. [سورة النجم، الآيات: ٣٦ ـ ٣٩. وأمثلة ذلك كثيرة.

وأما مالم يرد شرعنا بخلافه ومثاله الأخذ بقرينة الحال: كحكم سليمان بين المرأتين المتنازعتين، حيث دعا بالسكين ليشقه بينهما فوافقت إحداهما وامتنعت الأخرى فحكم به للتي امتنعت مع أنها هي الصغرى، لأن امتناعها دليل على أنها أمه، وهذا لم يرد مثله في شرعنا بعينه، وإن كان قد ورد مايدل على اعتبار القرائن من حيث الجملة. ولكن القول الراجح فيه: أنه شرع لنا، وأننا نعمل به لما ذكرنا من الدليل من القرآن.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل

والإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان الستة، والرسل ينقسمون إلى قسمين رسل من البشر، ورسل من الملائكة قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾. [سورة التكوير، الآيتان: ١٩، ٢٠]. والمراد بالرسول هنا جبريل وهو رسول ملكي، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر﴾. [سورة الحاقة، الآيتان: ٤٠، ٤١]. والمراد به محمد، ﷺ، وهو رسول بشري لكن المراد بقولنا: الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، المراد بالرسل هنا البشر لأن الرسول الملكي داخل في قولنا: (وملائكته).

الرسول البشري تعريفه عند جمهور أهل العلم: «أنه من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه» وأول الرسل نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وآخرهم محمد، ﷺ، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾. [سورة الأحزاب، الآية: ٤٠]. والدليل على أن محمدًا خاتمهم قوله ـ تعالى ـ:

﴿ماكان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٤٠].

فإن قلت: هل آدم رسول أم لا؟.

فالجواب: أنه ليس برسول لكنه نبي، كما جاء في الحديث الذي أخرجه ابن حبَّان في صحيحه أن النبي، صلى الله عليه وسلَّم سئل عن آدم: أنبي هو؟ قال: «**نعم نبي مُكلَّم**». ولكنه ليس برسول والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**كان النَّاس أمَّةً واحدةً فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢١٣].

وقوله، ﷺ، في حديث الشفاعة: «**إن الناس يذهبون إلى نوح فيقولون: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**». وهذا نص صريح بأن نوحًا أول الرسل.

كيف نؤمن بالرسل؟

الإيمان بالرسل أن نؤمن بأسماء من علمنا اسمه منهم، وأن نؤمن بكل خبر أخبروا به، وأن نؤمن بأنهم صادقون فيما قالوه من الرسالة، أما من لم نعرف اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً، فإننا لم نعرف أسماء جميع الرسل لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**﴾. [سورة غافر، الآية: ٨٧].

وأحكام الرسل السابقة من ناحية إلزامنا بها، أو لا، فالقول

فيها كالقول في أحكام الكتب.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين كون محمد، ﷺ، خاتم النبيين وبين ماصح به الحديث من نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان؟

فالجواب: أن عيسى ـ عليه السلام لاينزل على أنه رسول؛ لأن رسالته التي بعث بها كانت سابقة قبل رسالة النبي، ﷺ، ولأنه إذا نزل فلا يأتي بشرع من عنده، ولكنه يجدد شرع النبي، ﷺ، وبهذا يزول الإشكال بين كون محمد، ﷺ، خاتم النبيين وبين نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان.

الركن الخامس : الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر: وسمي يومًا آخرًا لأنه لايوم بعده، فإن للإنسان أحوالاً أولها العدم لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدَّهْر لم يكن شيئًا مذكورًا**﴾. [سورة الإنسان، الآية: ١]. ثم يصير حملاً، ثم يكون عاملاً في الدنيا، وحاله في الدنيا أكمل من حاله أثناء الحمل، ثم ينتقل إلى الحال الرابعة وهي: البرزخ وحاله في البرزخ أكمل من حاله في الدنيا، ثم ينتقل إلى الحال الخامسة وهو اليوم الآخر وحاله في هذه المرحلة أكمل المراحل السابقة.

وبيان ذلك أن الإنسان في بطن أمه لاشك أنه ناقص عن حاله في الدنيا قال ـ تعالى ـ: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾. [سورة النحل، الآية: ٧٨]. فصار بعد خروجه من بطن أمه عنده العلم، والسمع، والبصر، والعمل، وأحواله في هذه الدنيا ليست على الصفا دائمًا بل فيه صفاء وكدر، وتعب

وراحة، وجور وعدل، وصالح وفاسد، يقول الشاعر:

فيــوم علينــا ويــوم لنــا ويــوم نُســاءُ ويــوم نسرُّ

وهي بلا شك حنيئذ تكون حياة ناقصة، لأنه مامن لذة فيها إلا وهي منغصة كما قال الشاعر:

لاطيب للعيش مادامت منــغــصــة

لذاتــه بادِّكــار الموت والهرم

فأنت الآن شاب وقـوي لكن سيأتيك أحـد أمـرين: إمـا الموت، وإما الهرم، فحياة الدنيا منغصة ولهذا سميت الدنيا وهي من الدناءة، ومن الدنو أيضًا، فهي دنيئة بالنسبة للآخرة، وهي أيضًـا دنية لنقصـانها عن مرتبة الآخرة، وهي دنيا لأنها سابقة للآخرة فهي أدنى منها.

وحاله في البرزخ أكمل حالاً في الدنيا، لأن حاله مستقرة، فإذا كان من أهل الخير فهو منعم في قبره، يفتح له في قبره مد البصر، ويفرش من الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة، ولاينال هذا في الـدنيا، أمـا في الآخـرة فيعطى الكمال المطلق بالنسبة للإنسان حياة كاملة لايمكن أن تنسب إليها حياة الدنيا بأي وجه من الوجوه وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى بعد ذلك.

كيف نؤمن باليوم الآخر؟

الإيمان باليوم الآخر أن نؤمن بأن الناس سوف يبعثون ويجازون على أعمالهم، وأن نؤمن بكل ماجاء في الكتاب والسنة من أوصاف ذلك اليوم، وقد وصف الله ـ تعالى ـ ذلك اليوم بأوصاف عظيمة ولنأخذ منها وصفًا واحدًا قال ـ تعالى ـ: ﴿يأيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمَّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكنَّ عذاب الله شديد﴾. [سورة الحج، الآيتان: ١، ٢]. وأوصاف هذا اليوم الدالة على هوله وعظمته كثيرة في الكتاب والسنة.

ولا يقتصر الإيمان باليوم الآخر على الإيمان بهذا اليوم الذي يكون بعد البعث، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في عقيدته الواسطية: (من الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ماأخبر به النبي، ﷺ، مما يكون بعد الموت).

أولا: فتنة القبر:

وأول شيء يكون بعد الموت فتنة القبر فإن الناس يفتنون ـ أي يختبرون ـ في قبورهم فما من إنسان يموت سواء دفن في الأرض، أو رُمي في البر، أو أكلته السباع، أو ذرته الرياح، إلا ويفتن هذه الفتنة فيسأل عن ثلاثة أمور: من ربك؟ ومادينك؟ ومن نبيك؟.

فأمَّا المؤمن فيقول ربي الله ـ جعلنا الله منهم ـ وديني الإسلام، ونبيِّ محمد، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، وحينئذ يفسح له في قبره مد البصر، ويفرش له فراش من الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها، وهذه الحال بلا شك أكمل من حال الدنيا.

أما إذا كان كافرًا أو منافقًا فإنه إذا سئل من ربك؟ مادينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ها هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

وتأمَّل ماذا تدل عليه كلمة «هاه هاه»؟ فإنها تدل على أن هذا المجيب كأنه يتذكَّر شيئًا يبحث عنه ولكن يعجز عن استحضاره، وكون الإنسان يتذكَّر شيئًا ويعجز عن استحضاره أشد ألمًا من كونه لايدري عنه بالكلية، فلو سئلت عن شيء وأنت لاتعلم عنه فقلت لاأدري. فهذا نقص بلا شك لكن لايوجب حسرة، لكن لو أنت سئلت عن شيء وكنت تعلمه ثم عجزت عنه فإن ذلك حسرة، ولهذا يقول «هاه هاه» كأنه يتذكَّر شيئًا «لاأدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلان ـ (الإنس والجن) ـ، ولو سمعها لصعق، وقد ورد في صفة هذه

المرزبة أنه لو اجتمع عليها أهل منى ماأقلوها ـ والعياذ بالله ـ.

هذه الفتنة يجب الإيمان بها، لأن الإيمان بها من الإيمان باليوم الآخر فإن قلت: كيف يكون الإيمان بها من الإيمان باليوم الآخر وهي في الدنيا؟ فالجواب: إن الإنسان إذا مات فقد قامت قيامته.

ثانيًا: عذاب القبر ونعيمه:

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بعذاب القبر ونعيم القبر ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**كذلك يجزي الله المتقين* الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾. [سورة النحل، الآيتان: ٣١، ٣٢]. ومحل الدلالة قوله: ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون**﴾. [سورة النحل، الآية: ٣٢]. حال توافيهم: ﴿**سلام عليكم ادخلوا الجنة**﴾. [سورة النحل، الآية: ٣٢]. وهم وإن كانوا لم يدخلوا الجنة التي عرضها السموات والأرض لكن دخلوا القبر الذي فيه نعيم الجنة.

وقال تعالى أيضًا: ﴿**فلولا إذا بلغت الحلقوم* وأنتم حينئذ تنظرون* ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون* فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين* فأمّا إن كان من**

المقــربــين* فروحٌ وريحــان وجنـة نعيم﴾. [سـورة الـواقعـة، الآيات: ٨٣ـ٨٨]. وهذا يكون إذا بلغت الروح الحلقوم وهذا هو نعيم القبر بل إن الإنسان يبشر بالنعيم قبل أن تخرج روحه يقال لروحه: أخرجي أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتفرح الروح بذلك وتخرج خروجًا سهلاً ميسرًا.

وأمَّا السنّة فإن النبي، ﷺ، أخبر في أحاديث كثيرة بما يدل على أن الإنسان ينعم في قبره، وقد أشرنا إلى شيء منها.

وأما عذاب القبر فثابت أيضًا في الكتاب والسنة، فمن القرآن قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في آل فرعون: ﴿النارُ يُعرضون عليها غدوًّا وعشيًّـا ويـوم تقـوم السـاعـة ادخلوا آل فرعـون أشـدَّ العـذاب﴾. [سورة غافر، الآية: ٣٦]. فقوله: ﴿يعرضون عليها غدوًّا وغشيًّا﴾. [سورة غافر، الآية: ٣٦]. هذا قبل أن تقوم الساعة ﴿ويوم تقوم الساعة ادخلواآل فرعون أشد العذاب﴾. [سورة، غافر الآية: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿ولَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُون في غَمَراتِ المَـوْتِ والمـلائكـة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٣٦]. وكان هؤلاء يشحون بأنفسهم لايخرجونها، لأنه يبشرون بالعذاب ـ ولعياذ بالله ـ، فترتد الأرواح لاتريد أن

تخرج من أجسادها هربًا مما أنذرت به: ﴿أخرجُوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٩٣].

ووجـه الدلالة من قوله: ﴿اليوم تجزون﴾. لأن (أل) هنا للعهد الحضوري لقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾. [سورة المائدة، الآية: ٣]. أي اليوم الحاضر وهو يوم وفاة هؤلاء الظالمين.

وقال تعالى: ﴿وأمَّا إن كان من المكذبين الضَّالين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾. [سورة الواقعة، الآيات: ٩٢-٩٤].

وكلنا نقول في الصلاة: (أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر). فعذاب القبر ثابت بالقرآن، والسنة، والإيمان به من الإيمان باليوم الآخر.

هل العذاب في القبر على البدن أو على الروح؟

العذاب في القبر على الروح في الأصل وربما يتصل بالبدن، ومع ذلك فإن كونه على الروح لايعني أن البدن لايناله منه شيء بل لابد أن يناله من هذا العذاب أو النعيم شيء وإن كان غير مباشر.

واعلم أن العذاب والنعيم في القبر على عكس العذاب أو النعيم في الدنيا، فإن العذاب أو النعيم في الدنيا على البدن، وتتأثر به الروح، وفي البرزخ يكون النعيم أو العذاب على الروح، ويتأثر به البدن.

فلو قال لنا قائل: كيف تقولون: إن القبر يضيق على الإنسان الكافر حتى تختلف أضلاعه، ونحن لو كشفنا القبر لوجدنا أن القبر لم يتغير، وأن الجسد لم يتغير أيضًا؟

فالجواب على هذا أن نقول: إن عذاب القبر على الروح في الأصل، وليس أمرًا محسوسًا على البدن، فلو كان أمرًا محسوسًا على البدن، لم يكن من الإيمان بالغيب، ولم يكن منه فائدة، لكنه من الأمور الغيبية المتعلقة بالأرواح، والإنسان قد يرى في المنام وهو نائم على فراشه أنه قائم، وذاهب وراجع، وضارب ومضروب، وربما يرى وهو على فراشه نائم أنه قد سافر إلى العمرة، وطاف وسعى، وحلق أو قصَّر، ورجع إلى بلده، وجسمه على الفراش لم يتغيّر.

فأحوال الروح ليست كأحوال البدن.

ثالثًا: البعث:

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر البعث فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يبعث الأجساد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً. حفاة ليس عليهم نعال ولاخفاف: أي ليس عليهم لباس رجل، عراة: ليس عليهم لباس بدن، غرلاً: أي غير مختونين. وفي بعض الأحاديث: (بُهمًا) أي ليس معهم مال، بل كل واحد وعمله.

والبعث هنا إعادة وليس تجديدًا، كما قال ـ تعالى ـ: **﴿قال من يُحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾**. [سورة يس، الآيتان ٧٨، ٧٩]. وقال تعالى: **﴿كما بدأنا أول مرة نعيدُه﴾**، [سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤]. ولأنه لو كان خلقًا جديدًا لكان الجسد الذي يعمل السيئات في الدنيا سالمًا من العذاب، ويؤتى بجسد جديد فيعذب، وهذا خلاف العدل، فالنص والعقل قد دل على أن البعث ليس تجديدًا ولكنه إعادة، ولكن يبقى النظر كيف تكون إعادته، والإنسان ربما يموت، فتأكله السباع، ويتحول من اللحم إلى الدم في الحيوان الآكل وروث وما أشبه ذلك؟.

فيقال: إن الله على كل شيء قدير يقول للشيء كن فيكون، فيأمر الله هذه الأجساد التي تفرَّقت وأكلت وطارت بها الرياح أن

تعود فتعود، وهذا ينبني على القاعدة التي سبق أن قررناها وهي: «أن الواجب على الإنسان في الأمور الخبرية الغيبية هو التسليم»[١].

وقد أوردت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إشكالاً على قول النبي، ﷺ: «يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقالت: الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أعظم من أن يهمهم ذلك». فإن في ذلك اليوم لاينظر أحد إلى أحد لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المرء من أخيه* وأمِّه وأبيهِ* وصاحبته وبنيه* لكل امريء منهم يومئذ شأنٌ يغنيه﴾. [سورة عبس، الآيات: ٣٤ ـ ٣٧]. حتى الإنسان يذهل عن أنسابه وأقاربه ﴿فإذا نفخ في الصُّور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾. [سورة المؤمنون، الآية: ١٠١].

رابعًا: دنو الشمس من الخلائق:

ومن الإيمان باليوم الآخر أن نؤمن بأن الشمس تدنو من الخلائق بمقدار ميل، والميل يحتمل أن يكون ميل المكحلة، ويحتمل أنه المسافة من الأرض، وسواء كان ميل المكحلة أو ميل المسافة فإن الشمس تكون قريبة من الرءوس.

---

(١) رواه البخاري جـ٤ ص١١٠ كتاب الأنبياء، ومسلم جـ٤ ص٢١٩٤.

فإن قلت: كيف يمكن هذا ونحن الآن حسب مانعلم أن هذه الشمس لو دنت عما كانت عليه الآن بمقـدار شبر واحد لأحرقت الأرض، فكيف يمكن أن تدنو من الخلائق يوم القيامة بمقدار ميل؟

فالجواب: أن وظيفة المؤمن ـ وهذه قاعدة يجب أن تبنى عليها عقيدتنا ـ فيما ورد من أخبار الغيب القبول والتسليم وألا يسأل عن كيف؟ ولم؟ لأن هذا أمر فوق ماتتصوره أنت فالواجب عليك أن تقبـل وتسلم وتقـول: آمنّـا وصدقنا بأن الشمس تدنو من الخلائق يوم القيامة بمقدار ميل. ومازاد على ذلك من الإيرادات فهو من البدع، ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله عن استواء الله كيف استوى؟ قال السؤال عنه بدعة، هكذا أيضًا كل أمور الغيب السؤال عنها بدعة وموقف الإنسان منها القبول والتسليم.

أمـا الجـواب الثـاني بالنسبة لدنو الشمس من الخلائق يوم القيامة فإننا نقول: إن الأجسام تبعث يوم القيامة لا على الصفة التي عليها في الدنيا من النقص وعدم التحمُّل بل هي تبعث بعثًا كاملًا تامًّا، ولهذا يقف الناس يوم القيامة يومًا مقداره خمسون ألف سنـة لايأكلون ولايشربون، وهذا أمر لايحتمل في الدنيا

فتدنو الشمس منهم وأجسامهم قد أعطيت من القوة مايتحمل دنوها - ويشهد لهذا ماذكرناه من الوقوف خمسين ألف سنة لايحتاجون إلى طعام ولا شراب، وأن أهل الجنة ينظر الواحد منهم إلى مُلكه مسيرة ألف عام ينظر أقصاه كما ينظر أدناه ولا يمكن هذا في الدنيا، فالأجسام يوم القيامة لها شأن آخر غير شأنها في هذه الدنيا.

خامسًا: محاسبة الخلائق على أعمالهم:

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر أن تؤمن بأن الخلائق يحاسبون على أعمالهم، وقد سمى الله يوم القيامة يوم الحساب، لأنه اليوم الذي يحاسب الإنسان فيه على عمله.

ولكن هل الحساب حساب مناقشة كما يحاسب التاجر تاجرًا آخر بالفلس والهللة؟.

الجواب: لا، لكنه حساب فضل وإحسان وكرم بالنسبة للمؤمن فإن الله - سبحانه وتعالى - يحاسب المؤمن فيخلو به ويضع كنفه عليه أي ستره ويقرره بذنوبه فيقول له: عملت كذا في يوم كذا حتى يقر ويعترف، فإذا أقرَّ واعترف قال الله - سبحانه وتعالى - له: **«إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»**.

وكلنا لايخلو من الذنوب في هذه الدنيا ذنوب باطنة تتعلق بالقلوب، وذنوب ظاهرة تتعلق بالأبدان، لكن لايراها الناس، فقد تشاهد الرجل ينظر بعينه نظرًا محرمًا وأنت تظنه ينظر نظرًا حلالًا ماتدري ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور**﴾. [سورة غافر، الآية: ١٩]. خائنة الأعين أمر يعلم بالحس، لكن لايعمله أحد من يعلم أن هذه العين تنظر نظرًا محرمًا؟، ﴿**وماتخفي الصدور**﴾. [سورة غافر، الآية: ١٩]. هذا باطن فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: «**سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**».

أما الكفار والعياذ بالله فإنهم لايحاسبون هذا الحساب بل يقررون بأعمالهم ويقول عملتم كذا وكذا فإذا أنكروا تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم، وأرجلهم بما كانوا يعملون، حتى الجلود فإنها تشهد فيقولون لجلودهم: ﴿**لم شهدتم علينا**﴾. [سورة فصلت، الآية: ٢١]. قالوا: ﴿**أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون* وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون* وذلكم ظنكم الذي ظننتم**

بربكم أرداكم فأصبحتم من الخـاسرين* فإن يصـبروا فالنار مثـوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ . [سورة فصلت، الآيات: ٢١ ـ ٢٤]. يقرر الكفار بأعمالهم ويخزون بها والعياذ بالله ويُنادى على رءوس الأشهاد: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ . [سورة هود، الآية: ٨٨]. فانظر الفرق بين حساب المؤمن وحساب الكفار.

هل ينجو من الحساب أحد؟

الجواب: نعم ينجو منه عالم لايحصيهم إلا الله قال النبي، ﷺ: «إن أمتـه عرضت عليه وإن منهم سبعين ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب وهم الذي لايرقون، ولايسترقون، ولايكتوون، ولايتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون﴾ .

سادسًا: الوزن:

مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر: الوزن قال الله ـ تعالى ـ: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ . [سورة الأعراف، الآية: ٨]. وقال تعالى: ﴿ونضـع المـوازين القسط ليـوم القيـامـة﴾ . [سورة الأنبياء، الآية: ٤٧]. فتوزن الأعمال يوم القيامة بميزان توضع في إحداهما الحسنـات وفي الأخـرى السيئـات، والـذي يوزن في ظاهـر النصـوص العمل قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة

خيراً يره ومن يعمــل مثقـال ذرة شرًّا يره﴾. [سـورة الزلـزلـة، الآيتـان: ٧، ٨]. وقال النبي، ﷺ: «**كلمات حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[1]. فيوضع هذا الميزان: للخلائق وتوزن فيه الأعمال.

ولكن هنا أسئلة على الميزان:

أولاً: كيف توزن الأعمال وهي أوصاف للعاملين وحركات وأفعال؟

فالجواب: أن القاعدة في ذلك كما أسلفنا أن علينا أن نسلم ونقبل ولا حاجة لأن نقول كيف؟ ولم؟ ومع ذلك فإن العلماء - رحمهم الله - قالوا في جواب هذا السؤال: إن الأعمال تقلب أعيانًا فيكـون لهم جسم يوضـع في الكفة فيرجح أو يخف، وضربوا لذلـك مثلاً بما صح به الحديث عن النبي، ﷺ: «**أن الموت يجعل يوم القيامة على صورة كبش فينادى أهل الجنة ياأهل الجنة فيطلعون ويشرئبون وينادى ياأهل النار: فيطلعون ويشرئبون ماالـذي حدَث؟ فيؤتي بالمـوت على صورة كبش فيقال: هل تعـرفـون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، فيذبح الموت بين**

---

(١) رواه البخاري جـ٥ ص٢٣٦ كتاب التفسير ومسلم جـ٤ ص٢١٨٨ كتاب الجنة.

الجنة والنار، ويقال: يأأهل الجنة خلود فلا موت، ويأأهل النار خلود فلا موت»[1]. ونحن نعلم جميعًا أن الموت صفة، ولكن الله تعالى يجعله عينًا قائمة بنفسه وهكذا الأعمال.

ثانيًا: هل الميزان واحد أم متعدد؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين وذلك لأن النصوص جاءت بالنسبة للميزان مرة بالإفراد ومرة بالجمع مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ونضع الموازين القسط﴾، [سورة الأنبياء، الآية: ٤٧]. وكذلك في قوله: ﴿فمن ثقلت موازينه﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٨]. وأفرد في مثل قوله، ﷺ: «ثقيلتان في الميزان» فقال بعض العلماء: إن الميزان واحد، وأنه جمع باعتبار الموزون أو باعتبار الأمم فهذا الميزان توزن به أعمال أمة محمد، وأعمال أمة موسى، وأعمال أمة عيسى، وهكذا فجمع الميزان باعتبار تعدد الأمم، والذين قالوا إنه متعدد بذاته قالوا: لأن هذا هو الأصل في التعدد ومن الجائز أن الله ـ تعالى ـ يجعل لكل أمة ميزانًا، أو يجعل للفرائض ميزانًا، وللنوافل ميزانًا.

والذي يظهر والله أعلم أن المراد أن الميزان واحد، لكنه متعدد باعتبار الموزون.

---

(١) رواه البخاري جـ٨ ص٢١٩ كتاب التوحيد، ومسلم جـ٤ ص٢٠٧٢.

سابعًا: نشر الكتب:

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر نشر الدواوين وهي الكتب، تنشر بين الناس فيختلف الناس في أخذ هذه الكتب، منهم من يأخذها باليمين، ومنهم من يأخذها بالشمال، وقد أشار الله إلى ذلك في سورة الحاقة فقال: ﴿فأمَّا من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه* إني ظننتُ أنِّي ملاق حسابيه* فهو في عيشة راضية* في جنة عالية* قطوفها دانية* كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية* وأمَّا من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه* ولم أدر ماحسابيه﴾. [سورة الحاقة، الآيات: ١٩ - ٢٦]. فالمؤمن يقول للناس خذو كتابي اقرأوه مستبشرًا مسرورًا به، والكافر والعياذ بالله يتحسّر ويقول: ﴿ياليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه﴾. [سورة الحاقة، الآيتان: ٢٥، ٢٦].

هذا الكتاب قد كتب فيه مايعمله الإنسان كما قال - تعالى -: ﴿كلا بل تُكذِبون بالدين وإنَّ عليكُمْ لحافظين كرامًا كاتبين﴾، [سورة الانفطار، الآيات: ٩، ١١]. ويقال للإنسان: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا﴾. [سورة الإسراء الآية: ١٤].

قال بعض العلماء: والله لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك.

فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب، وأنها توزع يوم القيامة عن اليمين وعن الشمال، لكن في سورة الانشقاق يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وأمَّا من أوتي كتابه وراء ظهره﴾، [سورة الانشقاق، الآية: ١٠]. فكيف يمكن الجمع بين قوله: ﴿كتابه بشماله﴾، [سورة الحاقة، الآية: ٢٥]. وقوله: ﴿كتابه وراء ظهره﴾ [سورة الانشقاق، الآية: ١٠].

فالجواب: أنه يأخذه بشماله، لكن تخلع الشمال إلى الخلف من وراء ظهره، والجزاء من جنس العمل، فكما أن هذا الرجل جعل كتاب الله وراء ظهره أعطى كتابه يوم القيامة من وراء ظهره جزاءً وفاقًا.

ثامنًا: الحوض:

وممَّا يدخل في الإيمان باليوم الآخر أيضًا الحوض. حوض النبي، ﷺ، ـ جعلنا الله ـ ممَّن يشرب منه ـ هذا الحوض حوض واسع، طوله شهر وعرضه شهر، وآنيته كنجوم السماء في كثرتها وحُسنها، وماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، ومن يشرب منه شربة لايظمأ بعدها أبدًا، ويستمد الحوض ماؤه من الكوثر، وهو نهر أعطيه النبي،

ﷺ، في الجنة يصب منه ميزابان على الحوض فيبقى الحوض دائمًا مملوءًا، وَيَرِدُهُ المؤمنون من أمة الرسول، ﷺ، ويشربون منه، ويكون هذا الحوض في عرصات يوم القيامة عند شدة الحر وتعب الناس وهمهم وغمهم، فيشربون من هذا الحوض الذي لايظمئون بعد الشرب منه أبدًا.

تاسعًا: الشفاعة:

ومّما يدخل في الإيمان باليوم الآخر كذلك الشفاعة، وهي نوعان: **أحدها**: خاص بالنبي، ﷺ. **والثاني**: عام له ولسائر النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

أما الخاص بالنبي، ﷺ:

أولاً: الشفاعة العظمى التي تكون للقضاء بين الناس، وذلك أن الناس يوم القيامة يلحقهم من الكرب، والهم، والغمْ، مالا يطيقون، لأنهم يبقون خمسين ألف سنة، والشمس من فوق رءوسهم، والعرق قد يلجم بعضهم، فيجدون همًّا، وغمًّا، وكربًا، فيطلبون من يشفع لهم إلى الله - عز وجل - فينجيهم من ذلك، فيلهمهم الله - عز وجل - أن يذهبوا إلى آدم الذي هو أبو البشر فيأتون إليه ويسألونه الشفاعة، ولكنه يعتذر بأنه عصى ربه في أكله من الشجرة التي حرَّم الله عليه أن يأكل منها.

ولكن قد يقول قائل: إن أكله من الشجرة ذنب قد تاب منه وبعد أن تاب اجتباه الله وهداه قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وعصى آدمُ ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾. [سورة سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢].

فالجواب: نعم الأمر كذلك، وآدم بعد الخطيئة خير منه قبلها، لأن الله تعالى قال بعد أن حصلت الخطيئة والتوبة: ﴿اجتباه ربه﴾. [سورة طه، الآية: ١٢٢]. فجعله من المجتبين المصطفين، ولكنه يعتذر ـ أي من الشفاعة ـ بأكله من الشجرة، لأن مقام الشفاعة مقام عظيم يحتاج أن يكون الشافع فيه نزيهًا من كل شيء، لأنه شافع يريد أن يتوسط لغيره، فإذا كان مذنبًا كيف يمكن أن يكون شافعًا؟

فيذهب الناس إلى نوح ويطلبون منه الشفاعة، ولكنه يعتذر بأنه سأل ماليس له به علم، وكان قد سأل الله ـ تعالى ـ أن ينجي ابنه الكافر من الغرق: ﴿قال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين* قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنِ ماليس لك به علم إني أعظِكَ أن تكون من الجاهلين﴾. [سورة هود، الآيتان: ٤٥، ٤٦]. فيعتذر.

فيأتون إلى إبراهيم خليل الرحمن، عليه الصلاة والسلام، فيعتذر بأنه كذب ثلاث كذبات، وهو ليس في الواقع كذب، ولكنه تورية، لكن التورية ظاهرها الحقيقة والمراد خلاف الظاهر فمن أجل هذا تشبه الكذب من بعض الوجوه، ولكمال أدب إبـراهيم، عليه الصلاة والسلام، مع الله هاب أن يشفع وقد كذب هذه الكذبات في ذات الله ـ عز وجل ـ.

فيأتون إلى موسى بعد ذلك، فيعتذر بأنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها، والنفس التي قد أشار إلى أنه قتلها بغير حق: أنه خرج عليه الصلاة والسلام، فوجد رجلين يقتتلان هذا من شيعته، وهذا من عدوه، أحدهما من بني إسرائيل، والثاني من الأقباط، فاستغاثه الذي من شيعته ـ وهو الإسرائيلي ـ على الذي من عدوه وهو القبطي، وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلاً شديدًا، فوكز القبطي، فقضى عليه، فهذه هي النفس التي قتلها قبل أن يؤمر بقتلها، وهذا جعله يعتذر عن الشفاعة للناس.

ثم يأتون إلى عيسى، عليه الصلاة والسلام ـ وهو الذي ليس بينه وبين النبي، ﷺ، رسول ـ فلا يعتذر، لكنه يعترف بفضل النبي، ﷺ، يقول لهم: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ماتقدم

من ذنبه وماتأخر فيأتون إلى النبي، ﷺ، فيطلبون منه الشفاعة، فيشفع إلى الله ـ عز وجل ـ، فينزل الله ـ عز وجل ـ للقضاء بين العباد، وهذه الشفاعة تسمى العظمى، وهي من المقام المحمود الذي قال الله فيه: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٧٩]. فيشفع النبي، ﷺ، إليه فينزل الله ـ تعالى للقضاء بين عباده ويريحهم من هذا الموقف.

ثانيًا: من الشفاعة الخاصة بالرسول، ﷺ، أن يشفع لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، فأهل الجنة إذا عبروا الصراط ووصلوا إلى باب الجنة وجدوه مغلقًا، فيشفع النبي، ﷺ، إلى الله بأن يفتح لهم باب الجنة وقد أشار الله إلى هذه الشفاعة فقال ـ تعالى ـ: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾، [سورة الزمر، الآية: ٧٣]. ولم يقل: حتى إذا جاءوها فتحت، كما قال في أهل النار: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا حتى إذا جاءوها وفتحت﴾، [سورة الزمر، الآية: ٧١]. أما في أهل الجنة فقال: ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت﴾، [سورة الزمر، الآية: ٧٣]. لأنها لاتفتح إلا بعد الشفاعة.

أما الـذي تكون فيه ـ الشفاعة ـ عامًا، له ولسائر النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، فهما شفاعتان:

الأول: الشفـاعة في أهل النار من المؤمنين أن يخرجوا من النار.

والثانية: والشفـاعـة فيمن استحق النـار من المؤمنين أن لايدخل النار.

شروط الشفاعة:

ولابد للشفاعة من شروط ثلاثة:

أولها: رضا الله عن الشافع. **ثانيها:** رضاه عن المشفوع له.

ثالثا: إذنه.

ودليلهما قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وكم من ملك في السموات لاتغني شفـاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى**﴾. [سورة النجم، الآية: ٢٦]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولايشفعون إلا لمن ارتضى**﴾، [سورة الأنبياء، الآية: ٢٨]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾، [سورة البقرة، الآية: ٢٥٥]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً**﴾. [سورة طه، الآية: ١٠٩].

ولاتنفـع هذه الشفـاعـة المشركـين، لأن الله ـ تعـالى ـ

لايرضاها، ويشترط رضا الله عن المشفوع له، ولهذا أصنام المشركين التي يتعلقون بها، ويقولون إنها شفعاؤنا عند الله لاتنفعهم ولا تشفع لهم، بل لايزدادون بها إلا حسرة، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكُمْ وماتعبدون من دون الله حصب جهنَّم أنتم لها واردون﴾، [سورة الأنبياء، الآية: ٩٨]. فتحصب آلهتهم في النار فيزدادون والعياذ بالله غمًّا إلى غمهم.

عاشرًا: الصراط:

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر: الصراط، وهو عبارة عن جسر ممدود على النار يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، منهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، على حسب أعمالهم كل من كان أسرع في الدنيا لقبول الحق والعمل به كان على الصراط أسرع عبورًا، وكلما كان الإنسان أبطأ لقول الحق والعمل به كان على الصراط أبطأ، فيمر أهل الجنة على هذا الصراط فيعبرون، أما الكفار فلا يمرون عليه، لأنه يصار بهم إلى النار والعياذ بالله، فيأتونها وردا عطاشاً.

الحادي عشر: دخول الجنة أو النار:

وهي آخر المراحل حيث يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، والسؤال: هل الجنة والنار موجودتان الآن؟.

فالجواب: نعم. موجودتان ودليل ذلك من الكتاب والسنة: أما الكتاب فقال الله ـ تعالى ـ في النار: ﴿واتَّقوا النار التي أعدت للكافرين﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٣١]. والإعداد بمعنى التهيئة، وفي الجنة قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وسَارعُوا إلى مغفرة من رَّبكُمْ وجنَّة عرضها السمٰوات والأرض أعدِت للمتقين﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٣]. ، والإعداد أيضًا التهيئة.

وأما السنة فقد ثبت في الصحيحين[1] وغيرهما في قصة كسوف الشمس أن النبي، ﷺ، قام يصلي فعرضت عليه الجنة والنار، وشاهد الجنة حتى همَّ أن يتناول منها عنقودًا، ثم بدا له ألا يفعل، عليه الصلاة والسلام، وشاهد النار ورأى فيها عمرو بن لحى الخزاعي يجرُّ قُصبه في النار والعياذ بالله ـ يعني أمعاءه ـ قد اندلقت من بطنه، فهو يجرها والعياذ بالله في نار جهنم، لأن هذا الرجل أول من أدخل الشرك على العرب؛ فكان له كفل من العذاب الذي يصيب من بعده، ورأى امرأة تعذب في النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، ورأى فيها صاحب المحجن ـ والمحجن: عصا محنية الرأس ـ وصاحب المحجن سارق يسرق الحجاج بمحجنه؛ فإن فطن له الحاج قال: هذا المحجن انشبك

(١) رواه البخاري جـ٢ ص٢٨ كتاب الكسوف ومسلم جـ٢ ص٦٢٢.

بغير إرادتي، وإن لم يفطن له أخذه ومشى، فرأى النبي، ﷺ، في النار هذا الرجل يعذب بمحجنه، والعياذ بالله.

فدل ذلك على أن الجنة والنار موجودتان الآن.

هل الجنة والنار تفنيان أم تبقيان؟

الجنة والنار تبقيان، فالجنة تبقى أبد الآبدين، والنار تبقى كذلك أبد الآبدين، ودليل ذلك من القرآن كثير: بالنسبة للجنة قال الله ـ تعالى ـ: **﴿إنَّ الذين آمنُوا وعملُوا الصالحات أولئك هم خيرُ البريَّة جزاؤهم عند ربِّهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾**. [سورة البينة، الآيتان: ٧، ٨].

وفي النار ذكر الله التأبيد في ثلاث آيات من القرآن:

الأولى: في سورة النساء: **﴿إنَّ الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولاليهديهم طريقًا* إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا﴾**. [سورة النساء، الآيتان: ١٦٨، ١٦٩].

الثانية: في سورة الأحزاب قال الله تعالى: **﴿إن الله لعن الكافرين وأعدَّ لهم سعيراً خالدين فيها أبدًا﴾**. [سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٤، ٦٥].

والثالثة: في سورة الجن وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ومن يَعْص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا**﴾. [سورة الجن، الآية: ٢٣].

وبعد هذا النص الصريح في القرآن، يتبين أن ماقيل من أن النار تفنى قول ضعيف جدًّا لايعول عليه؛ لأنه لايمكن أن تعول على قول صرّح القرآن بخلافه، بل ولايحل لنا ذلك.

فالنار والجنة موجودتان الآن، وتبقيان، ولاتفنيان أبدًا.

* * *

الركن السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره

الإيمان بالقدر خيره وشره هو الركن السادس، وهو محل عراك بين العلماء وآرائهم، ومحل عراك بين النفس المطمئنة والنفس الأمَّارة بالسوء.

الإيمان بالقدر معناه أن تؤمن بأن الله ـ عز وجل ـ قد قدَّر كل شيء يكون إلى مالا نهاية له، وأنَّه قدَّره عن علم، ولهذا قال العلماء: إن مراتب الإيمان بالقدَر أربع مراتب:

المرتبة الأولى: العلم ومعناها: أن تؤمن بأن الله ـ تعالى ـ عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً فيما يتعلق بفعله الذي يفعله ـ عز وجل ـ بنفسه كالخلق، والإحياء، والإماتة، وإنزال المطر وغير ذلك، أو يتعلق بفعل المخلوقين، كأقوال الإنسان، وأفعاله، بل حتى أفعال الحيوان كلها معلومة لله ـ عز وجل ـ قبل وقوعها، وأدلة هذه المرتبة كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وكان الله بكل شيء عليما﴾، [سورة الأحزاب، الآية: ٤٠].

ومنها قوله: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد

أحـاط بكل شيء علما﴾، [سورة الطلاق، الآية: ١٢]. ومنها قوله ـ تعالى ـ: **﴿وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافي الـبر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا في كتاب مبين﴾**. [سورة الأنعام، الآية: ٥٩].

ونتكلم عن قولـه: **﴿ويعلم مافي الـبر والبحـر. .﴾** كلمة **﴿مـا﴾** اسم موصول، وكل اسم موصول فهو مفيد للعموم، فكل شيء في البر، الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمه، وكذلك كل شيء في البحر، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمه.

﴿ومـا تسقط من ورقـة إلا يعلمهـا﴾. [سـورة الأنعـام، الآية: ٥٩]. أي ورقة في أي شجرة في أي مكان في رأس جبل، أو في بطن وادي، أو في روضـة من بقاع الأرض، كل شجرة يسقط منها ورقة فالله ـ تعالى ـ يعلم هذه الورقة، وكل ورقة تنبت فهو عالم بها من باب أولىٰ.

وقوله: **﴿وماتسقط من ورقة﴾**، [سورة الأنعام، الآية: ٥٩]. في هذه الجملة حرف زائد وهو **﴿من﴾**، فإنه زائد في الإعراب، لكنه يزيد في المعنى: وهو تأكيد العموم المستفاد من وقوع النكرة

في سياق النفي، لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، فإذا جاءت «من» زادته توكيدًا.

﴿ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرْضِ﴾، [سورة الأنعام، الآية: ٥٩].

أي حبة، سواء كانت كبيرة، أو صغيرة في ظلمات الأرض إلا يعلمها الله ـ عز وجل ـ، وكلمة ﴿ظلمات﴾ جمع تدل على أن للأرض ظلمات الأرض: وهي ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الطين، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الغبار، فهذه ظلمات ست وقد يكون هناك ظلمات أخرى لم نعلمها، وهذه الظلمات لاتحول بين الله ـ عز وجل ـ وبين هذه الحبة، بل هو ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمها ويراها ـ جل وعلا ـ.

﴿لارَطْب وَلا يابس﴾، [سورة الأنعام، الآية: ٥٩]. وما من شيء إلا وهو إما رطب وإما يابس: ﴿إلاَّ في كِتاب مُبين﴾، [سورة الأنعام، الآية: ٥٩]. وهو اللوح المحفوظ، وهذا الكتاب إنما كان عن علم من الله ـ عز وجل ـ.

وعلم الله ـ تعالى ـ بعمل الإنسان موجود في كتاب الله ـ عز وجل ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿أمْ يحسبون أنَّا لانسمع سرَّهم ونجواهم بلى ورسلُنا لديهم يكتبون﴾، [سورة الزخرف، الآية: ٨٠]. فهو

يعلم السر والنجوى، والسر: هو مايسرّه الإنسان في قلبه، ويحدِّث به نفسه، وأما النجوى: فهي مايتناجى به مع صاحبه. وكل هذا معلوم لله ـ عز وجل ـ.

وهذا العلم من الله ـ عز وجل ـ لم يسبقه جهل، ولايلحقه نسيان، ولهذا لما قال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ القرون الأولى﴾. [سورة طه، الآية: ٥١]. قال: ﴿علمها عند ربي في كتاب لايضل ربي ولاينسى﴾، [سورة طه، الآية: ٥٢]. أي يجهل، ولاينسى ماكان معلومًا. بينما علم البشر محفوف بهاتين الآفتين، جهل سابق، ونسيان لاحق، ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئًا﴾. [سورة النمل، الآية: ٧٨].

المرتبة الثانية: الكتابة ومعناها: أن تؤمن بأن الله ـ تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة. كل شيء في الوجود، أو يكون إلى العدم فإنه مكتوب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

لَّما خلق الله القلم، قال له: اكتب قال رب: وماذا أكتب؟ قال: اكتب ماهو كائن، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى

يوم القيامة . فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وماأخطأه لم يكن ليصيبه .

ودليل هذه المرتبة من الكتاب قوله ـ تعالى ـ: ﴿ألَمْ تعلم أنَّ الله يعلم مافي السَّماء والأرض إنَّ ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ ، [سورة الحج ، الآية : ٧٠] . وقوله تعالى : ﴿مَاأصاب من مُصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ . [سورة الحديد، الآية : ٢٢] .

قال أهل العلم : والكتابة لها أنواع :

النوع الأول: الكتابة العامة وهي الكتابة في اللوح المحفوظ .

النوع الثاني: الكتاب العُمريَّة (نسبة إلى العمر) وهي التي تكون على الإنسان وهو في بطن أمه فإن الإنسان كما قال ابن معسود ـ رضي الله عنه ـ حدَّثنا رسول الله ، ﷺ ، وهو الصادق المصدوق فقال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا

ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»، لأن الكتاب الأول هو العمدة.

ولكن نحن إذا قرأنا هذا الحديث، فإنه لاينبغي أن لا ننسى أحاديث أخرى تبشر الإنسان بالخير، صحيح أن هذا الحديث مروع أن يقول القائل: كيف يعمل الإنسان بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع، ثم يخذل ـ والعياذ بالله ـ فيعمل بعمل أهل النار؟ لكن هناك ولله الحمد نصوصًا أخرى، تفرج عن المؤمن كربته فيما يتعلق بهذا الحديث، من ذلك: قال النبي، ﷺ: **«مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا يارسول أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل مُيسّر لما خلق الله، فأمَّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأمَّا أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة»**[1]، ثم تلا قوله ـ تعالى ـ: **﴿فأمَّا مَنْ أعْطَى واتَّقَى وصدَّق بالحُسْنى فَسَنيسره لليسرى وأمَّا من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾**. [سورة الليل،

---

(١) رواه البخاري جـ٦ ص٨٦ كتاب التفسير.

الآيات: ٥ ـ ١٠]. إذن هذه بشارة من الرسول، عليه الصلاة والسلام، للإنسان أنه إذا عمل بعمل أهل السعادة فهو دليل على أنه كتب من أهل السعادة فليستبشر.

وروى البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه أن النبي، ﷺ، كان في غزاة، وكان معهم رجل شجاع مقدام، فقال النبي، ﷺ، ذات يوم: «**إن هذا من أهل النار مع شجاعته وإقدامه**»، فعظم ذلك على الصحابة وشق عليهم، فقال أحد الصحابة: والله لألزمنَّ هذا، فلزمه فأصاب هذا الرجل الشجاع سهم من العدو فغضب، ثم وضع سيفه على صدره واتكأ عليه، حتى خرج من ظهره، فقتل نفسه، فجاء الرجل إلى النبي، ﷺ، فقال له: أشهد أنك رسول الله، قال: «**وماذا؟**» قال: إن الرجل الذي قلت لنا إنَّه من أهل النار فعل كيت وكيت، ثم قال رسول الله، ﷺ: «**إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**»[1]. أسأل الله يخلص سريرتي وسرائركم، السريرة لها شأن عظيم في توجيه الإنسان، فالقلب هو الموجه للإنسان، وهو الأصل، لذلك يجب أن نلاحظ القلوب، وأن نمحصِّها ونغسلها من درنها، فقد يكون فيها عرق

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري جـ٤ ص٧٨ ومسلم جـ٤ ص٢٠٣٦ كتاب القدر.

خبيث، يتظاهر الإنسان بعمل جوارحه بالصلاح، لكن في القلب هذا العرق الفاسد الذي يطيح به في الهاوية في النهاية.

يقول بعض السلف: (ماجاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص، الذي ليس بشيء عند كثير منًا هذا يحتاج إلى جهاد عظيم، لو كان في الإنسان شيء يسير من الرياء لم يكن مخلصًا تمام الإخلاص وربما يكون هذا الشيء اليسير من الرياء في قلبه - ربما يكون - سببًا لهلاكه في آخر لحظة.

ذكر ابن القيم - رحمه الله - آثار الذنوب وعقوبتها، ومن جملة ماذكر أن رجلاً منهمكًا في الربا، جعل أهله يلقنونه الشهادة، فكلما قالوا له: قل: لا إله إلا الله. قال: العشرة إحدى عشر، لأنه ليس في قلبه غير ذلك من المعاملات المحرَّمة التي رانت على قلبه حتى طبع عليه في آخر لحظة - والعياذ بالله.

ولمَّا حضرت الوفاة الإمام أحمد - رحمه الله - وناهيك به علمًا وعبادة، ورعًا وزهدًا لما حضرته الوفاة سمعوه إذا غشي عليه يقول: (بعدُ بعدُ)، فلما أفاق قيل له: ياأبا عبدالله ماقولك: (بعد بعد) قال: رأيت الشيطان يعض على أنامله يقول: (فتني ياأحمد)، فأقول له: (بعد بعد) أي: ألم أفتك مادامت الروح في

البـدن، فالإنسـان على خطر، والنبي، ﷺ، يقـول: «**حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**».

نعود إلى ماسبق من الكتابة العمرية، فالإنسان يكتب عليه وهـو في بطن أمه، يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد.

النوع الثالث: الكتابة الحولية ـ أي عند كل حول: وهي التي تكـون ليلة القدر، فإن ليلة القدر يكتب فيها مايكون في السنة كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة إنَّا كُنَّا مُنـذرين* فيهـا يُفـرق كل أمـر حكيم**﴾، [سورة الدخان، الآيتان: ٣، ٤]. ﴿**يفرق**﴾ أي يبين ويفصل، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿**إنَّا أنزلناه في ليلة القدْر**﴾، [سورة القدر، الآية: ١]أي مقدر فيها مايكون في تلك السنة.

النوع الرابع: كتابة مستمرة كل يوم وهي كتابة الأعمال فإن الإنسان لا يعمل عملاً إلا كتب، إمَّا له وإمَّا عليْه. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**كلا بل تُكذِّبون بالدين وإنَّ عليكم لحافظين كرامًا كاتبـين يعلمون ماتفعلون**﴾، [سورة الانفطار، الآيات: ٩ ـ ١٢].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه**

ونحن أقرب إليه من حبل الوريد* إذ يتلقَّى المتلقَّيان عن اليمين وعن الشَّمال قعيد مايلفظُ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ ، [سورة ق، الآيات: ١٦-١٨]. لكن هذه الكتابة تختلف عن الكتابات السابقة، فالكتابات السابقة كتابة لما يفعل، وهذه الكتابة كتابة لما فعل، ليكون الجزاء عليه.

النوع الخامس: كتابه الملائكة التي تكون عند أبواب المساجد يوم الجمعة، فإن أبواب المساجد يوم الجمعة يكون عليها ملائكة يكتبون الأول فالأول، فمن راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الثالثة فكأنما قرَّب كبشًا أقرن، ومن راح في الرابعة فأنما قرب دجاجة، ومن راح في الخامسة فكأنما قرَّب بيضة، ومن جاء بعد مجيء الإمام فليس له أجر التقدم؛ لأن الإمام سبقه، وإذا حضر الإمام طويت الصحف، وحضرت الملائكة يستمعون الذكر.

المرتبة الثالثة: المشيئة ومعناها: أن تؤمن بأن كل كائن وجودًا أو عدمًا فهو بمشيئة الله، وقد أجمع المسلمون على هذا في الجملة فكل المسلمين يقولون: ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن.

فكل شيء واقع بمشيئة الله، أما ماكان بفعل الله فهو بمشيئته لا إشكال فيه، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وكذلك

ماكان من فعل المخلوق فهو أيضًا بمشيئة الله ، ودليل ذلك من الكتاب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شاء الله ماقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البيِّنات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله مااقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد﴾ ، [سورة البقرة، الآية: ٢٥٣] . والاقتتال فعل العبد فجعله الله ـ عز وجل ـ بمشيئته وقال ـ تعالى ـ: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يُوحي بعضُهم إلى بعض زُخرف القول غروراً ولو شاء ربُّك مافعلوه﴾ ، [سورة الأنعام، الآية: ١١٢] . وقال ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿ولو شاء الله مافعلوه﴾ . [سورة الأنعام، الآية: ١٣٧] .

وقال ـ تعالى ـ: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وماتشاءون إلا أن يشاء الله ربُّ العالمين﴾ ، [سورة التكوير، الآيتان: ٢٨ ، ٢٩] . إذن فأفعالنا واقعة بمشيئة الله .

أما الدليل العقلي فأن يقال:

هل الخلق ملك لله؟

فالجواب: نعم .

هل يمكن أن يكون في ملك الله مالايريد؟

الجواب: لايمكن، فمادام الشيء ملكه فلن يكون في ملكه مالا يريد. إذن فكل ماكان في ملكه فهو بإرادته وبمشيئته ولا يكون في ملكه مالايشاء أبدًا، إذ لو كان في ملكه مالا يشاء لكان ملكه ناقصًا، وكان في ملكه مايقع بدون اختياره وبدون علمه.

المرتبة الرابعة: الخلق ومعناها: الإيمان بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق كل شيء، فنؤمن بعموم خلق الله ـ تعالى ـ لكل شيء ودليل ذلك قال الله ـ تعالى ـ: ﴿تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا الذي له ملك السموات والأرض ولم يتَّخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدّرهُ تقديرًا﴾، [سورة الفرقان، الآيتان: ١، ٢]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿الله خالِقُ كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾، [سورة الزمر، الآية: ٦٢]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ بديعُ السموات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكلِ شيء عليم﴾، [سورة الأنعام، الآية: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿إنَّا كلَّ شيء خلقناهُ بقدَر﴾. [سورة القمر، الآية: ٤٩].

والآيات في ذلك واضحة كثيرة: أن كل شيء مخلوق لله ـ عز وجل ـ حتى فعل الإنسان مخلوق لله ـ تعالى ـ، وإن كان باختياره وإرادته لكنه مخلوق لله ـ تعالى ـ، وذلك أن فعل الإنسان ناشيء

من أمرين هما: الإرادة الجازمة، والقدرة التامة.

مثال ذلك: أمامك حجر زنته عشرون كيلو، فقلت لك. أحمل هذا الحجر فقلت: لاأريد حمله، فهنا انعدمت إرادتك على حمل الحجر، قلت لك ثانية: احمل هذا الحجر، فقلت: نعم سمعًا وطاعة، ثم أردت أن تحمله فعجزت عن حمله، فهذا أنت لم تحمله لعدم القدرة، قلت لك ثالثة: احمل هذا الحجر فقلت سمعًا وطاعة وحملته فوق رأسك فهنا حملته لقدرتك وإرادتك.

فأفعالنا كلها التي نفعلها ناشئة عن إرادة جازمة، وقدرة تامة، والذي خلق هذه القدرة والإرادة هو الله ـ عز وجل ـ، فلو أن الله جعلك مشلولاً ماقدرت، ولو صرف همتك عن الفعل مافعلت. ولهذا قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وصرف الهمم. فأحيانًا يكون الإنسان عنده عزيمة أكيدة على الشيء، ثم تنتقض هذه العزيمة بدون أي سبب. وأحيانًا يخرج الإنسان يريد الذهاب لأحد أصدقائه، ثم ينصرف ولا يذهب بدون أي سبب، لكن الله ـ عز وجل ـ يلقي في قلبه انصراف الهمة فيرجع.

لهذا نقول: إن أفعال الإنسان مخلوقة لله، لأنها ناشئة عن إرادة جازمة وقدرة تامة، وخالق هذه الإرادة، والقدرة هو الله - سبحانه وتعالى -.

ووجه كون الله هو الخالق لهذه الإرادة والقدرة؛ لأن الإرادة والقدرة وصفان للمريد والقادر خالقه هو الله، وخالق الموصوف خالق للوصف، وبهذا اتضَّح الأمر وانجلى بأن أفعال الإنسان مخلوقة لله - عز وجل -.

وهاهنا بحوث في باب القدر، لأن هذا الباب كما قلنا في أول الكلام عليه باب شائك مشكل.

* * *

المبحث الأول : لله - عز وجل - مشيئة ، وله إرادة ومحبة

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ويفعلُ الله مايشاءُ﴾. [سورة إبراهيم، الآية: ٢٧]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ولكن الله يفعلُ مايريدُ﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢٥٣].

أولاً: هل المشيئة والارادة شيء واحد؟ أم يفترقان؟ الجواب: بل يفترقان.

ثانيًا: هل الإرادة والمحبة شيء واحد، يعني أن الله إذا أحبَّ شيئًا أراده، وإذا أراد شيئًا فقد أحبَّه؟ أو يفترقان؟ الجواب: بل يفترقان.

فعندنا ثلاثة أشياء: المشيئة، والمحبة، والإرادة، وهذه الثلاثة ليست بمعنى واحد، بل تختلف.

المشيئة: تتعلق بالأمور الكونية سواء كانت محبوبة الله أو مكروهة له، أي أن الله ـ تعالى ـ قد يشاء الشيء وهو لايحبه، وقد يشاء الشيء وهو يحبه.

فالمعاصي كائنة بمشيئة الله، وهو لايحبها، والفساد في الأرض كائن بمشيئة الله، والله لايحب الفساد، والكفر كائن بمشيئة

الله، والله لايحب الكفر.

فالمشيئة إذن تتعلق بالأمور الكونية فيشاء الله كونًا مالايحبه ومايحبه.

المحبة: تتعلق بالأمور الشرعية، فلا تكون إلا فيما يحبه الله، فالمعاصي غير محبوبة لله، وأما الطاعات فهي محبوبة له سبحانه، سواء حصلت أم لم تحصل.

الإرادة: ولها جانبان: جانب تكون فيه بمعنى المشيئة، وجانب تكون فيه بمعنى المحبة، فإذا كانت بمعنى المحبة فهي الإرادة الشرعية، وإذا كانت بمعنى المشيئة فهي الإرادة الكونية.

وإذا كانت الإرادة شرعية وهي التي تكون بمعنى المحبة، فإنه لايلزم منها وقوع المراد مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿والله يُريدُ أن يتوب عليكم﴾، [سورة النساء، الآية: ٢٧] فهذه إرادة شرعية بمعنى المحبة، لأنها لو كانت بمعنى المشيئة لوقت التوبة على جميع الناس، ونحن نشاهد أن من الناس من يتوب ومنهم من لايتوب.

وأما الإرادة الكونية التي بمعنى المشيئة فيلزم فيها وقوع المراد، فإذا أراد الله شيئًا كونًا وقع ولابد وهذه الإرادة كالمشيئة، تكون فيما يحبه وفيما لايحبه، لكن إذا أراد الله شيئًا بهذا المعنى

وقـع ولابـد، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولكنَّ الله يفعلُ مايريدُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٥٣] فإنه كقوله: ﴿ويفعل الله مايشاء﴾، [سورة إبراهيم، الآية: ٢٧] سواء بسواء ومثل قوله: ﴿إنَّ كان الله يريدُ أن يغويكم﴾، [سورة هود، الآية: ٣٤] فإنها بمعنى يشاء أن يغويكم، وليست بمعنى يحب أن يغويكم، لأن الله ـ تعالى ـ لايحب أن يغوي عباده.

ويمكن أن تتفق الإرادتان ـ الشرعية والكونية ـ في حادث واحد، مثل إيمان أبي بكر فهذا مراد الله شرعًا وكونًا؛ لأن الله يحبه فهو مراد له شرعًا؛ ولأنه وقع فهو مراد له كونًا.

وتنتفي الإرادتان مثل (كفر المؤمن) فهو غير مراد لله شرعًا، لأنَّه يكرهه، وغير مراد لله كونًا، لأنَّه لم يقع.

ومثال الإرادة الكونية دون الشرعية مثل (كفر أبي جهل وأبي لهب)، فقد تعلَّق بكفرهما الإرادة الكونية، لأنه وقع الكفر دون الشرعية، لأن الله لايحب الكافرين.

ومثال الإرادة الشرعية دون الكونية، مثل (إيمان فرعون) فهو مراد شرعًا، لأن الله ـ عز وجل ـ أرسل إليه موسى ودعاه، لكن الله لم يرده كونًا، فلذلك لم يقع ولم يؤمن فرعون.

المبحث الثاني : كراهية اللّه - سبحانه - للكفر مع إرادته له

إذ كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يكره الكفر فكيف يريده مع أنَّه لا أَحَدَ يُكرِهُ الله ـ عز وجل ـ؟ فالجواب: أن المراد نوعان:

النوع الأولَ: مراد لذاته: وهو المحبوب، فالشيء المحبوب يريده من يريده لذاته كالإيمان، فالإيمان مراد لله كونًا وشرعًا؛ لأنَّه مراد لذاته.

النوع الثاني: المراد لغيره بمعنى أن الله تعالى يقدِّره لا لأنه يحبه، ولكن لما يترتب عليه من المصالح فهو مراد لغيره، فيكون من هذه الناحية مشتملاً على الحكمة وليس فيه إكراه.

مثال ذلك: الكفر مكروه لله ـ عز وجل ـ ولكن الله يُقدِّره على العباد، لأنه لولا الكفر لم يتميز المؤمن من الكافر، ولم يكن المؤمن محلًا للثناء؛ لأن كل الناس مؤمنون، وأيضًا لو لم يقع الكفر فلم يكن هناك جهاد فمن يجاهد المؤمن إذن، ولو لم يقع الكفر ماعرف المؤمن قدر نعمة الله عليه بالإسلام، ولو لم يقع الكفر، وكان الناس كلهم مسلمين ماكان للإسلام فضل، ولا ظهر له

فضل، ولو لم يقع الكفر لكان خلق النار عبثًا وقد أشار الله - تعالى - إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ولو شاء ربُّك لجعل النَّاس أمة واحدةً ولا يزالون مختلفين إلاَّ من رحم ربُّك ولذلك خلقهُم وتمَّت كلمةُ ربِّك لأملأنَّ جهنَّم من الجنةِ والناس أجمعين﴾، [سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩]. فتبينَّ أن المراد الكوني - الذي يكون مكروهًا لله - يكون مرادًا لغيره.

واضرب مثلًا: ﴿ولله المثل الأعلى﴾، [سورة النحل، الآية: ٦٠]. برجل له ابن يحبه حبًا جمًا، ولو سقطت عليه شرارة من نار، لكانت كالتي سقطت على قلب أبيه، من محبته له، فمرض هذا الابن فعرض على الأطباء، فقال الطبيب: لابد من كيه بمسمار من نار، فقال الأب، وهو كذلك، فهذا الكي للابن ليس محبوبًا للأب لذاته بل محبوبًا لغيره، فتجد هذا الأب أراد وبكل طمأنينة وراحة وانشراح صدر أراد أن يكوي ابنه بمسمار من نار، مع أنه لو سقطت على الابن شرارة لكانت ساقطة على قلب أبيه.

فعلم الآن أن المكروه قد يفعل، لا لذاته ولكن لغيره، فهكذا الكفر والمعاصي والفساد، يريدها الرب - عز وجل - لما تتضمنه من المصالح، فهي مرادة لغيرها لا لذاتها.

المبحث الثالث: قضاء الله والرضا به

نحن نؤمن بأن الله ـ سبحـانـه ـ يقضي كل شيء، فنؤمن بقضاء الله أيًّا كان هذا القضاء، ويجب علينا أن نؤمن به ونرضى به أيًّا كان، لكن هل يجب علينا أن نرضى بالمقضى؟ أو لانرضى؟.

نقول: هذا أقسام، فالمقضي نوعان:

الأول: مقضي شرعاً. والثاني: مقضي كونًا.

فالمقضي شرعًا: يجب علينا أن نرضى به، مثل أن قضى الله علينا بوجوب الصلاة، فيجب أن نؤمن بهذا القضاء، وأن نسلِّم لوجوب الصلاة، ومثل: أن قضى الله بتحريم الزنا، فيجب علينا أن نؤمن بهذا المقضي، وأن الزنا محرم، ومثل أن قضى الله بحل البيع فيجب علينا أن نرضى بذلك وأن نؤمن بأن البيع حلال، ومثل: أن قضى الله بتحريم الربا، فيجب علينا أن نؤمن بهذا، وأن نستسلم لتحريم الربا.

فالخط العريض لهذا المسألة أن القضاء الشرعي يجب الرضا

به، والتسليمَ به؛ لأن: ﴿ومَن لَّمْ يَحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. [سورة المائدة، الآية: ٤٤]

وأمَّا الثاني فهو القضاء الكوني: أي مايقضي به الله كونًا ـ فإن كان محبوبًا للنفس، ملائمًا للطبع، فالرضا به من طبيعة الإنسان وفطرته، كما لو قضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان بعلم فإنه يرضى به، وكذلك لو قضى الله سبحانه للإنسان بمال فإنه يرضى به، وكذلك لو قضى بولد فإنه يرضى به.

وإما أن يكون المقضي كونًا غير ملائم للإنسان، ولا موافق لطبيعته مثل المرض، الفقر، الجهل، فقدان الأولاد، أو ماأشبه ذلك، فهذا اختلف العلماء فيه:

فمنهم من قال: يجب الرضا.

ومنهم من قال يستحب الرضا.

والصحيح: أن الرضا به مستحب.

وأحوال الإنسان عند هذا النوع من القضاء ـ وهو القضاء الذي لايلائم الطبع ويكون مكروهًا للإنسان ـ أحواله عنده أربع: السخط، والصبر، والرضا، والشكر.

أولاً: السخط: وهو محرَّم كما لو أصيب رجل بمصيبة وهي تلف المال، فأخذ يتسخط من قضاء الله وقدره وصار يخمش وجهه، ويشق ثوبه، ويجد في نفسه كراهة لتدبير الله ـ عز وجل ـ، فهذا محرَّم، ولهذا لعن النبي، ﷺ، النائحة والمستمعة وقال: «**ليس منَّا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**».

هل هذا الفعل مع كونه محرمًا، ومن كبائر الذنوب هل يبرد من حرارة المصيبة؟ أبدًا لايبرد من حرارة المصيبة، بل يزيدها، ويبدأ الإنسان يتسخط ويتحسر ولا يستفيد شيئًا؛ لأن هذا القضاء الذي قضاه الله ـ عز وجل ـ، لابد أن يقع مهما كان، يعني لاتقدر أنك لو لم تفعل كذا لم يكن كذا فهذا تقدير وهمي من الشيطان، فهذا المقدَّر لابد أن يكون، ولهذا قال النبي، عليه الصلاة والسلام: «**ماأصابك لم يكن ليخطئك، وماأخطأك لم يكن ليصيبك**». فلابد أن يقع كما أراد الله ـ عز وجل ـ، وقال النبي، ﷺ: «**احرص على ماينفعك، واستعن بالله، ولاتعجزنَّ، وإن أصابك شيء ـ أي بعد أن تحرص على ماينفعك، وتستعين بالله ـ إن أصابك شيء لاتقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا فإن (لو) تفتح عمل الشيطان**».

فلو أن إنسانًا خرج للنزهة بسيارته ـ التي هي من أحسن السيارات ـ فأصيب بحادث وتكسرت السيارة، فبدأ يقول: لو أني ماخرجت لهذه النزهة ماتكسرت السيارة، ويُندم نفسه، ويلوم نفسه، فهل ينفعه هذا؟ أبدًا لاينفع، لأن هذا كُتب وسيجري الأمر بما كتب مهما كان.

ثانيًا: الصبر: يتألم الإنسان من المصيبة جدًّا ويحزن، ولكنه يصبر، لا ينطق بلسانه، ولايفعل بجوارحه، قابض على قلبه، موقفه أنه قال: «اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها». «إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون»، فحكم الصبر هنا الوجوب، فيجب على الإنسان أن يصبر على المصيبة، وألا يحدِّث قولاً محرمًا، ولا فعلاً محرمًا.

ثالثًا: الرضا: تصيبه المصيبة فيرضى بقضاء الله، والفرق بين الرضا والصبر، أن الراضي لم يتألم قلبه بذلك أبدًا، فهو يسير مع القضاء «إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له»، ولايرى الفرق بين هذا وهذا بالنسبة لتقبله لما قدّره الله ـ عز وجل ـ، أي أن الراضي تكون المصيبة وعدمها عنده سواء. هذه المسألة يقول بعض العلماء: إنها واجبة، لكن جمهور أهل العلم على أنها ليست بواجبة، بل

مستحبة، فهذه لاشك أنها أكمل حالاً من الصبر، وأما أن نلزم الناس ونقول يجب عليكم أن تكون المصيبة وعدمها عندكم سواء، فهذا صعب ولا أحد يتحمله، فالصبر يستطيع الإنسان أن يصبر، ولكن الرضا يعجز أن يرضى.

رابعًا: الشكر: وهذه قد يستغربها الإنسان، فكيف يمكن للإنسان أن يصاب بمصيبة فيشكر الله، وهل هذا إلا مناف لطبيعة البشر؟ ولكن يكون هذا إذا عرف الإنسان قدر ثواب المصيبة إذا صبر عليها قال ـ تعالى ـ: ﴿إنما يُوَفَّى الصَابُرونَ أجرهُم بِغيْر حِسَاب﴾، [سورة الزمر، الآية: ١٠] وقال: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾، [سورة البقرة، الآيتان: ٥٥، ١٥٧] فيقول: ماأرخص الدنيا عندي، وماأقلها في عيني، إذا كنت أنال بهذه المصيبة التي صبرت عليها أنال هذه الصلوات وهذه الرحمة من الله ـ عز وجل ـ وهذا الأجر الذي أوفاه بغير حساب، فيشكر الله على هذه النعمة ويرى أن هذه من نعمة الله عليه، لأن كل الدنيا زائلة وفانية، والأجر، والصلوات، والرحمة باقية، فيشكر الله على هذه المصيبة ـ والشكر هنا على المصيبة مستحب وليس بواجب، لأنه أعلى من

الرضا ـ أما الشكر على النعم فهو واجب.

فهـذه هي مراتب الإنسان بالنسبة للمقضي كونًا مما يخالف الطبيعة ولا يلازم رغبة الإنسان.

وهنـا مسألة: إذا قال قائل: ماتقولون في الرضا بالنسبة لما يفعله الإنسان من الأمورالشرعية كما لو زنى إنسان، أو سرق، فهل ترضون بزناه وسرقته؟

فالجـواب: أن فيهـا نظرين: الأول باعتبـار أن الله قدَّرها وأوجـدهـا، فهي من هذه النـاحية قضاء كوني يجب علينا أن نرضى به، فلا نقول لماذا جعل الله الزاني يزني، وجعل السارق يسرق، فليس لنا أن نعترض.

أما بالنسبة لفعل العبد لها فلا نرضى، ولهذا فإننا نقيم عليه الحد قال ـ تعالى ـ: **﴿الزانية والزَّاني فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله وباليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾**، [سورة النور، الآية: ٢] وفي السارق قال الله ـ تعالى ـ: **﴿والسَّارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾**، [سورة المائدة، الآية: ٣٨] ومعلوم أن جلدهما، وقطع يد السارق والسارقة غير رضا، فلو كان رضا ماكنا تعرَّضنا لهم بالعقوبة.

المبحث الرابع : احتجاج المذنبين بالقدر

نحن ذكرنا أن كل شيء قد كتبه الله ، وكل شيء بمشيئة الله ، وكل شيء مخلوق لله ، فهل هذا الإيمان يستلزم أن يكون للعاصي حجة على معصية؟ أو لا؟ كما لو أمسكنا رجلًا يعصى الله ، فقلنا له لم تفعل المعصية؟ فقال: هذا بقضاء الله وقدره، فهذا صحيح ، لكن إذا جاء بهذه الكلمة ليحتج بها على معصية ، فنقول: هذه الحجة باطلة ، ولا حجة لك بالقدر على معصية الله - عز وجل -، ودليل ذلك قال الله - تعالى -: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولا أباؤنا ولا حرَّمنا من شيء كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقُوا بأسنا﴾ ، [سورة الأنعام ، الآية: ١٤٨] . فلم يقرهم الله - سبحانه - على احتجاجهم والدليل على أنه لم يقرَّهم قوله: ﴿حتَّى ذاقُوا بأسنا﴾ ، ولو كان لهم حجة في ذلك ماأذاقهم الله بأسًا.

ولكن سيورد علينا مورد خلاف ماقررناه، سيقول قائل: ألم يقل الله - تعالى -: ﴿اتَّبِعْ ماأوحِيَ إليك من ربِّك لا إله إلا هو وأعْرِض عن المُشركين ولو شاء الله ماأشركوا وماجعلناك عليهم

حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل﴾، [سورة الأنعام، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧]. فكيف تقول إن الله أبطل حجة الذين قالوا: **﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾**. والله ـ عز وجل ـ يقول لرسوله: **﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾**؟

فالجواب: هناك فرق بين المراد في الآيتين، أما قوله: **﴿اتَّبع ما أوحي إليك من ربِّك لا إله إلا هو وأعرض عن المُشركين ولو شاء الله ما أشركوا﴾**، [سورة الأنعام، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧]. فهذا تسلية للرسول، ﷺ، يبين الله لهم أن شركهم واقع بمشيئة الله، من أجل أن يطمئن الرسول، ﷺ، ويعلم أنه إذا كان بمشيئة الله فلابد أن يقع، ويكون به الرضا.

أما الآية الثانية: **﴿سَيقولُ الَّذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا. . .﴾**، [سورة الأنعام، الآية: ١٤٨]. فإنما أبطل الله ذلك لأنهم يريدون أن يحتجوا بالقدر على الشرك والمعصية، فهم لو احتجّوا بالقدر للتسليم به مع صلاح الحال لقبلنا ذلك منهم، كما لو أنهم عندما أشركوا قالوا: هذا شيء وقع بمشيئة الله، ولكن نستغفر الله ونتوب إليه من ذلك، لقلنا: أنتم صادقون، أما أن يقولوا حين ننهاهم عن الشرك: **﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا**

آباؤنا ولا حَرَّمنا من شيء . . ﴾، [سورة الأنعام، الآية: ١٤٨]. فهذا غير مقبول منهم إطلاقًا.

ثانيًا: ويدل على بطلان احتجاج العاصي بالقدر أيضًا يقول الله ـ تعالى ـ حين ذكر الرسل: **﴿إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾** [سورة النساء، الآية: ١٦٣]. قال: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾**. [سورة النساء، الآية: ١٦٥]. ووجه الدلالة بهذه الآية أن القدر لو كان حجة لم تنقطع هذه الحجة بإرسال الرسل، لأن القدر قائم حتى بعد إرسال الرسل، فلمَّا كان إرسال الرسل حجة يقطع عذر العاصي تبيَّن أن القدر ليس حجة للعصاة، ولو كان القدر حجة لهم لبقي حجة لهم حتى بعد إرسال الرسل، لأن القدر لاينقطع بإرسال الرسل.

ثالثًا: ومن الأدلة على بطلان الاحتجاج بالقدر أن يقال لمن احتجَّ بالقدر: إن أمامه الآن طريقان، طريق خير، وطريق شر، وهو قبل أن يدخل طريق الشر، هل يعلم أن الله قدَّر له أن يدخل طريق الشر؟ لايعلم بلا شك، وإذا كان لايعلم فلماذا لايُقدِّر أن الله قدَّر له طريق الخير؟! لأن الإنسان لايعلم ماقدَّره

الله إلا بعد أن يقع؛ لأن القضاء كما قال بعض العلماء: «سر مكتوم»، لايعلم إلا بعد أنْ يقع ونشاهده فنقول للعاصي: أنت أقدمت على المعصية، وحين إقدامك لاتعلم أن الله قدَّرها لك، فإذا كنت لاتعلم فلماذا لاتقـدِّر أن قدَّر لك الخير فتلج باب الخير؟!

رابعًا: أن نقول له: أنت في شئون دنياك تختار الخير أم الشر؟ فسيقول: الخير، فنقول له لماذا لاتختار في شئون الآخرة ماهو خير؟!

ومثل ذلك: إذا قلنا له أنت الآن ستسافر المدينة قال: نعم. فقلنا له، هناك طريقان طريق اليسار غير مسفلت، وفيه قطَّاع طريق، وأخطار عظيمة، وأما الطريق الأيمن فهو مسفلت وآمن فمن أين ستسافر؟ بالتأكيد أنه سيقول من الأيمن، فنقول له: لماذا في أمور الدنيا تذهب إلى الأيمن الذي فيه الخير والنجاة؟! لماذا لاتذهب مع الطريق الأيسر، الذي فيه قطَّاع الطريق وغير معبَّد وتقول هذا مقدَّر عليَّ؟! فسيقول: أنا لا أعلم المقدَّر ولكن بنفسي أختار الطيب. فنقول له: لماذا لاتختار في طريق الآخرة ماهو طيب؟!

مثـال آخـر: إذا أمسكنا واحدًا من الناس، وبدأنا نضربه ضربًا مبرحًا، وهو يصيح ونحن نقول له: هذا قضاء الله وقدره،

وكلما صاح ضربناه وقلنا له: هذا قضاء الله وقدره، فهل يقبل هذه الحجة؟ بالتأكيد أنه لن يقبلها، مع أنه إذا عصى الله قال: هذا قضاء الله وقدره ولكن نحن إذا عصينا الله فيه مايقبل أن نقول له: هذا قضاء الله وقدره، بل يقول: هذا من فعلكم أنتم، أليست هذه حجة عليه؟ ولهذا يذكر أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطَّاب - رضي الله عنه - جيء - إليه بسارق فأمر بقطع يده، لأن السارق يجب أن تقطع يده، فقال: مهلاً ياأمير المؤمنين، فوالله ماسرقت إلا بقضاء الله وقدره، فهو صادق لكن أمامه عمر فقال له رضي الله عنه: ونحن لانقطعك إلا بقضاء الله وقدره، فأمر بقطعه بقضاء الله وقدره، فاحتج عليه عمر بما احتج به هو على عمر.

فإذا قال قائل: إن لدينا حديثًا أقرّ فيه النبي، ﷺ، الاحتجاج بالقدر وهو: أن آدم احتجّ هو وموسى فقال له موسى: أنت أبونا خيبتنا أخرجتنا ونفسك من الجنة، فقال له آدم: أتلومني على شيء قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني؟ فقال النبي، ﷺ: «**فحج آدم موسى، فحج آدم موسى**»، أي غلبه بالحجة مع أن آدم احتج بقضاء الله وقدره. فهل هذا الحديث إلا إقرار للاحتجاج بالقدر؟.

فالجواب أن نقول: إن هذا ليس احتجاجًا بالقضاء والقدر على فعل العبد ومعصية العبد، لكنه احتجاج بالقدر على المصيبة الناتجة من فعله، فهو من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، ولهذا قال: «**«خيبتنا، أخرجتنا ونفسك من الجنة»**. ولم يقل: عصيت ربك فأخرجت من الجنة.

إذن احتج آدم بالقدر على الخروج من الجنة الذي يعتبر مصيبة، والاحتجاج بالقدَر على المصائب لا بأس به.

أرأيت لو أنك سافرت سفرًا، وحصل لك حادث، وقال لك إنسان: لماذا تسافر، لو أنك بقيت في بيتك ماحصل لك شيء؟ فبماذا ستجيبه؟ الجواب: أنك ستقول له: هذا قضاء الله وقدره، أنا ماخرجت لأجل أن أصاب بالحادث، وإنما خرجت لمصلحة فأصبت بالحادث، كذلك آدم عليه الصلاة والسلام، هل عصى الله لأجل أن يخرجه من الجنة؟ لا فالمصيبة إذن التي حصلت له مجرد قضاء وقدر، وحينئذ يكون احتجاجه بالقدر على المصيبة الحاصلة احتجاجًا صحيحًا، ولهذا قال النبي، ﷺ: «**فحج آدم موسى فحج آدم موسى**».

مثال آخر: ماتقولون في رجل أصاب ذنبًا وندم على هذا الذنب وتاب منه، وجاء رجل من إخوانه يقول له: يافلان كيف

يقع منك هذا الشيء؟ فقال: هذا قضاء الله وقدره. فهل يصح احتجاجه هذا أو لا؟ نعم يصح، لأنه تاب فهو لم يحتج بالقدر ليمضي في معصيته، لكنه نادم ومتأسف.

ونظير ذلك أن النبي، ﷺ، دخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعلى فاطمة بنت محمد رضي الله عنها فوجدهما نائمين، فكأن النبي، ﷺ، لامهما لماذا لم يقوما؟ فقال: علي بن أبي طالب: يارسول الله إن أنفسنا بيد الله فإن شاء الله أمسكها، وإن شاء أرسلها، فخرج النبي، ﷺ، يضرب على فخذه وهو يقول: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾. [سورة الكهف، الآية: ٥٤]. فهل الرسول قبل حجته؟ لا، لكن الرسول، ﷺ، بيَّن أن هذا من الجدل، لأن الرسول، ﷺ، يعلم أن الأنفس بيد الله، لكن يريد أن يكون الإنسان حازمًا، فيحرص على أن يقوم ويصلي.

على كل حال تبين لنا أن الاحتجاج بالقدر على المصائب جائز، وكذلك الاحتجاج بالقدر على المعصية بعد التوبة منها جائز، وأما الاحتجاج بالقدر على المعصية تبريرًا لموقف الإنسان واستمرارًا فيها فغير جائز.

المبحث الخامس : هل الإنسان مسير أم مخير

شاعت كلمة بين الناس في هذا الزمن المتأخِّر وهي قوله : هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟

الأفعال التي فعلها الإنسان يكون مخيرًا، فالإنسان مخير، فبإمكانه أن يأكل، ويشرب، ولهذا بعض الناس إذا سمع أذان الفجر قام إلى الماء ليشرب، وذلك باختياره، وكذلك إذا جاء الإنسان النوم فإنه يذهب إلى فراشه لينام باختياره، وإذا سمع أذان المغرب، والتمر أمامه والماء، فإنه يأكل باختياره، وهكذا جميع الأفعال تجد أن الإنسان فيها مخيرٌ، ولولا ذلك لكان عقوبة العاصي ظلمًا، فكيف يعاقب الإنسان على شيء ليس فيه اختيار له، ولولا ذلك لكان ثواب المطيع عبثًا، فكيف يثاب الإنسان على شيء لااختيار له فيه؟! وهل هذا إلا من باب العبث؟ .

إذن فالإنسان مخير، ولكن مايقع من فعل منه فهو بتقدير الله، لأن هناك سلطة فوق سلطته ولكن الله لايجبره، فله الخيار ويفعل باختياره.

ولهذا إذا وقع الفعل من غير إرادة من الإنسان فإنه لاينسب

إليه، قال ـ تعالى ـ في أصحاب الكهف: ﴿**ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال**﴾، [سورة الكهف، الآية: ١٨]. فنسب الفعل ﴿نقلبهم﴾ إليه سبحانه، لأن هؤلاء نُوَّم فلا اختيار لهم، وقال النبي، ﷺ: «**من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه**».(١) فنسب الإطعام والسقي إلى الله، لأن الناسي ما فعل الشيء باختياره فلم يختر أن يفسد صومه بالأكل والشرب.

الحاصل أن هذه العبارة لم أرها في كتب المتقدمين من السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ولا في كلام الأئمة، ولا في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، أو ابن القيم أو غيرهم ممن يتكلمون، لكن حدثت هذه أخيرًا، وبدأوا يطنطنون بها، «هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟» ونحن نعلم أننا نفعل الأشياء باختيارنا وإرادتنا، ولا نشعر أبدًا أن أحدًا يكرهنا عليها ويسوقنا إليها سوقًا، بل نحن الذين نريد أن نفعل فنفعل، ونريد أن نترك فنترك.

لكن كما أسلفنا أولاً في مراتب القدر فإن فعلنا ناشيء عن إرادة جازمة وقدرة تامة، وهذان الوصفان في أنفسنا، وأنفسنا

---

(١) رواه البخاري جـ٢ ص٢٣٤ كتاب الصوم، ومسلم كتاب الصوم.

مخلوقة لله، وخالق الأصل خالق للفرع.

فوائد الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر له فوائد:

أولاً: تكميل الإيمان بالله فإن القدر قدر الله - عز وجل - فالإيمان به من تمام الإيمان بالله - عز وجل -.

ثانيًا: استكمال لأركان الإيمان: لأن النبي، ﷺ، ذكره ضمن الإيمان في حديث جبريل.

ثالثًا: أن الإنسان يبقى مطمئنًا لأنه إذا علم أن هذا من الله رضي واطمأن وعرف أن ماأصابه لم يكن ليخطئه، وماأخطأه لم يكن ليصيبه، وقد قلنا إنه لايمكن أن يغيِّر الشيء عمَّا وقع أبدًا، فلا تحاول، ولا تفكُّر، ولا تقل (لو)، فالذي وقع لايمكن أن يتغيَّر أو يتحوَّل.

رابعًا: أن هذا من تمام الإيمان بربوبية الله، وهذا يشبه الفائدة الأولى، لأن الإنسان إذا رضي بالله ربًّا استسلم لقضائه وقدَّره واطمأن إليه.

خامسًا: أن الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله - عز وجل - فيما يقدره من خير أو شر، ويعرف به أن وراء تفكيره وتخيُّلاته من هو أعظم وأعلم، ولهذا كثيرًا مانفعل

الشيء أو كثيراً مايقع الشيء فنكرهه وهو خير لنا. فأحيانًا يشاهد الإنسان رأي العين أن الله يعسر عليه أمرًا يريده، فإذا حصل ماحصل وجد أن الخير في عدم حدوث ذلك الشيء. وماأكثر مانسمع أن فلانًا قد حجز في الطائرة الفلانية على أنه سيسافر، ثم يأتي فيجد أن الطائرة قد أقلعت، وفاته السفر، فإذا بالطائرة يحصل عليها حادث. فهو عندما حضر أولاً ليركب فيها ووجد أنها أقلعت يحزن، لكن عندما يقع الحادث يعرف أن هذا خير له، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**كُتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون**﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢١٦].

بقي علينا في حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سؤال جبريل النبي، ﷺ، عن الإحسان، والساعة حيث قال جبريل للنبي ﷺ ماالإحسان قال النبي، ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه: فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فقال أخبرني عن الساعة؟ قال: ماالمسئولُ عنها بأعلم من السائل؟**».

أولاً: الإحسان:

الإحسان: ضد الإساءة، وهو أن يبذل الإنسان المعروف

ويكف الأذى، فيبذل المعروف لعباد الله في ماله، وعلمه، وجاهه، وبدنه.

فأما المال فأن ينفق، ويتصدق، ويزكي، وأفضل أنواع الإحسان بالمال الزكاة، لأن الزكاة أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ولايتم إسلام المرء إلا بها، وهي أحب النفقات إلى الله ـ عز وجل ـ، ويلي ذلك، مايجب على الإنسان من نفقة لزوجته، وأمه، وأبيه، وذريته، وإخوانه، وبني إخوته، وأخواته وأعمامه، وعماته، وخالاته إلى آخر هذا، ثم الصدقة على المساكين وغيرهم، ممَّن هم أهل للصدقة كطلّاب العلم مثلاً.

وأمّا بذل المعروف في الجاه فهو أن الناس مراتب، منهم من له جاه عند ذوي السلطان فيبذل الإنسان جاهه، يأتيه رجل فيطلب منه الشفاعة إلى ذي سلطان يشفع له عنده، إما بدفع ضرر عنه، أو بجلب خير له.

وأما بعلمه فأن يبذل علمه لعباد الله، تعليمًا في الحلقات والمجالس العامة والخاصة، حتى لو كنت في مجلس قهوة، فإن من الخير والإحسان أن تعلم الناس، ولو كنت في مجلس عام فمن الخير أن تعلّم الناس، ولكن استعمل الحكمة في هذا الباب، فلا تثقل على الناس حيث كلّما جلست مجلسًا جعلت

تعظهم وتتحدث إليهم، لأن النبي، ﷺ، كان يتخولهم بالموعظة، ولا يكثر، لأن النفوس تسأم وتمل فإذا ملت كلت وضعفت، وربما تكره الخير لكثرة من يقوم ويتكلم.

وأما الإحسان إلى الناس بالبدن فقد قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة»**. فهذا رجل تعينه تحمل متاعه معه، أو تدله على طريق أو ما أشبه ذلك فكل ذلك من الإحسان، هذا بالنسبة للإحسان إلى عباد الله.

وأما بالنسبة للإحسان في عبادة الله: فأن تعبد الله كأنك تراه، كما قال النبي، ﷺ، وهذه العبادة أي عبادة الإنسان ربه كأنه يراه عبادة طلب وشوق، وعبادة الطلب والشوق يجد الإنسان من نفسه حاثًا عليها، لأنه يطلب هذا الذي يحبه، فهو يعبده كأنه يراه، فيقصده وينيب إليه ويتقرَّب إليه ـ سبحانه وتعالى ـ، **«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**، وهذه عبادة الهرب والخوف، ولهذا كانت هذه المرتبة ثانية في الإحسان، إذا لم تكن تعبد الله ـ عز وجل ـ كأنك تراه وتطلبه، وتحث النفس للوصول إليه فاعبده كأنه هو الذي يراك، فتعبده عبادة خائف منه،

هارب من عذابه وعقابه، وهذه الدرجة عند أهل العبادة أدنى من الدرجة الأولى.

وعبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ هي كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وعبادة الرحمن غاية حبه

مع ذل عابده هما ركنان

فالعبادة مبنية على هذين الأمرين: غاية الحب، وغاية الذل، ففي الحب الطلب، وفي الذل الخوف والهرب، فهذا هو الإحسان في عبادة الله ـ عز وجل ـ.

وإذا كان الإنسان يعبد الله على هذا الوجه، فإنه سوف يكون مخلصًا لله ـ عز وجل ـ، لايريد بعبادته رياء ولاسمعة، ولامدحًا عند الناس، وسواء اطَّلع الناس عليه أم لم يطَّلعوا، الكل عنده سواء، ولا مدحًا عند الناس، وسواء اطَّلع الناس عليه أم لم يطَّلعوا، الكل عنده سواء، وهو محسن العبادة على كل حال، بل إن من تمام الإخلاص أن يحرص الإنسان على ألا يراه الناس في عبادته، وأن تكون عبادته مع ربه سرًا، إلا إذا كان بإعلان ذلك مصلحة للمسلمين أو للإسلام، مثل أن يكون رجلًا متبوعًا يقتدى به، وأحب أن يبين عبادته للناس ليأخذوا من ذلك نبراسًا

يسيرون عليه، أو كان هو يحب أن يظهر العبادة ليقتدي بها زملاؤه وقرناؤه وأصحابه ففي هذا خير، وهذه المصلحة التي يلتفت إليها قد تكون أفضل وأعلى من مصلحة الإضفاء، لهذا يثني الله ـ عز وجل ـ على الذين ينفقون أموالهم سرًّا وعلانية، فإذا كان السر أصلح وأنفع للقلب وأخشع وأشد إنابة إلى الله أسروا، وإذا كان في الإعلان مصلحة للإسلام بظهور شرائعه، وللمسلمين يقتدون بهذا الفاعل وهذا العامل أعلنوه.

والمؤمن ينظر ماهو الأصلح، كلَّما كان أصلح وأنفع في العبادة فهو أكمل وأفضل.

الساعة وعلامتها:

ثم قال جبريل للنبي، ﷺ: «**أخبرني عن الساعة متى تكون؟ فقال النبي، ﷺ: ماالمسئول عنها بأعلم من السائل؟**».

فالمسئول هو الرسول، ﷺ، والسائل جبريل عليه السلام، وكلنا يعلم أن هذين الرسولين أفضل الرسل فجبريل أفضل الملائكة، ومحمد أفضل البشر، بل أفضل الخلق على الإطلاق، عليه الصلاة والسلام، وكلاهما لايدري متى تقوم الساعة، لأنه لايدري متى تقوم الساعة إلا الرب ـ عز وجل ـ قال تعالى:

﴿يسألك الناس عن الساعة قل إنّما علمُها عند الله﴾، [سورة الأحزاب، الآية: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربّك مُنتهاها﴾، [سورة النازعات، الآيات: ٤٢ - ٤٤]. فكان النبي، ﷺ، يقول لجبريل: إذا كنت لاتعلمها فأنا أيضًا لا أعلمها، وليس المسئول بأعلم من السائل، وإذا كانت خفية عليك فهي أيضًا خفية علي، فلا يعلمها إلا الله، قال: «فأخبرني عن أماراتها». أي علاماتها وأشراطها، كما قال - تعالى -: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾. [سورة محمد، الآية: ١٨].

وأشراط الساعة هي العلامات الدالة على قربها، وقد قسّمها العلماء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أشراط مضت وانتهت.

القسم الثاني: أشراط لم تزل تتجدد وهي وسط،

القسم الثالث: أشراط كبرى تكون عند قرب قيام الساعة.

فمن الأشراط السابقة المتقدمة: بعثة النبي، ﷺ، فإن بعثة الرسول، ﷺ، وكونه خاتم النبيين دليل على قرب الساعة، ولهذا قال النبي، ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى». أي أنهما متقاربان.

وأما الأشراط التي تتجدد وهي صغيرة، فمثل فتح بيت المقدس وغيرها مما جاءت به السنة عن النبي، ﷺ.

وأما الأشراط الكبرى التي تنتظر فمثل طلوع الشمس من مغربها، فإن هذه الشمس التي تدور الآن، إذا غابت استأذنت من الله ـ عز وجل ـ أن تستمر في سيرها، فإن أذن الله لها وإلا قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع وتخرج من مغربها، وحينئذ يؤمن الناس إذا رأوها، ولكن: ﴿لاينفع نفسًا إيمانها لم تكُن آمَنْت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١٥٨].

ثم ذكر الرسول، ﷺ، من أشراطها.

أولاً: قال: «أن تلد الأمة ربتها». وفي رواية «أن تلد الأمة ربها»، ومعنى هذا أن من أشراط الساعة أن الأمَة التي كانت تباع وتشترى تلد من يكونوا أسيادًا ومالكين، فهي كانت مملوكة في الأول، وتلد من يكونوا أسيادًا مالكين.

ويكون معنى قوله (ربتها) أو (ربها) إضافة إلى الجنس، لا إضافة إلى نفس الوالدة، لأن الوالدة لايمكن أن يملكها ابنها، ولكن المراد الجنس كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولقد زيَّنا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وجعلناها رجومًا للشياطين﴾، [سورة الملك،

الآية: ٥]. فالضمير في ﴿جعلناها﴾ يعود إلى الذي يرمي به الشهب، لكن لما كانت هذه الشهب تخرج من النجوم أضيفت إلى ضمير يعود عليها، كذلك (ربها) أو (ربتها) فالمراد الجنس أي أن الأمة تلد من يكون سيدًا أم تلد الأمة من تكون سيدة.

ثانيًا: «وأن الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان كما وهذه الأوصاف تنطبق على الفقراء الذين من البادية يرعون الغنم يتطاولون في البنيان، وهذا يلزم أن أهل البادية يرجعون إلى المدن فيتطاولون في البنيان، بعدما كانوا حفاه، عراة، عالة، يرعون الشاة، وهذا وقع من زمان.

وهنا سؤال: هل الرسول، ﷺ، لما قال له جبريل: أخبرني عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأمة ربها...» إلخ هل أراد الحصر؟ أم أراد التمثيل؟ فالجواب: أنه أراد التمثيل، وفي هذا دليل على أن الشيء قد يفسِّر ببعض أفراده على سبيل التمثيل، وإلا فهناك أشراط أخرى لم يذكرها النبي، ﷺ.

(فانطلق) ثم قال النبي، عليه الصلاة والسلام: «أتدرون من السائل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

فجبريل الذي له ستمائة جناح، وقد سد الأفق، أتي على صورة رجل، ثم قال: «يعلمكم دينكم» ومع أن الذي علَّمنا الدين هو النبي، ﷺ، لكن النبي، ﷺ، جعل جبريل معلمًا، لأنه هو الذي سأل وكان التعليم بسببه، فيستفاد منه أن المتسبب كالمباشر.

وقد أخذ الفقهاء قاعدة من هذا في باب الجنايات قالوا: (المتسبب كالمباشر) ولهذا سمى النبي، ﷺ، جبريل الذي تسبب لتعليم الرسول، ﷺ، هذا الدين الذي أجاب به جبريل سمَّاه معلمًا.

الثاني: أن الإنسان إذا سأل عن مسألة وهو يعلمها، لكن من أجل أن يعرفها الناس صار هو المعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبهذا انتهى حديث جبريل والحمد لله رب العالمين.

مفاتح الغيب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين أما بعد. . .

نتكلم في هذا الدرس إن شاء الله ـ تعالى ـ عن مفاتح الغيب: ﴿وعِنْدَهُ مفاتِحُ الغيب لايَعْلمها إلا هو﴾، [سورة الأنعام، الآية: ٥٩]. وقد بيَّنها النبي، ﷺ، حيث تلا قوله ـ تعالى ـ ﴿إنَّ الله عندهُ علمُ الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام وماتدري نفس ماذا تكسب غدًا وماتدري نفس بأي أرض تموت﴾. [سورة لقمان، الآية: ٣٤].

هذه مفاتح الغيب، وسميت مفاتح لأن كل واحد منها فاتحة لشيء بعده:

﴿إن الله عندهُ عِلم الساعة﴾، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]. فالساعة فاتحة للآخرة التي هي النهاية:

﴿وينزل الغيث﴾، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]. والغيث فاتحة لحياة النبات.

﴿ويعلم مافي الأرحام﴾ ، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]. فاتحة لحياة كل شيء.

﴿وماتدري نفس ماذا تكسب غدا﴾ ، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]. فاتحة للمستقبل.

﴿وماتدري نفس بأي أرض تموت﴾، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]. فاتحة لقيامه كل إنسان بحسبه، علًم الساعة القيامة العامة، وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وماتدري نفسٌ بأي أرض تموت﴾ ، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]. فهو فاتحة لقيامة كل إنسان، لأن من مات فقد قامت قيامته.

أولاً: إن الله عنده علم الساعة:

علم الساعة لايمكن لأحد أن يدركه إلا الرب ـ عز وجل ـ، فها هو أفضل الرسل من الملائكة جبريل يسأل أفضل الرسل من البشر محمدًا، ﷺ، يقول: أخبرني عن الساعة؟ فقال النبي، ﷺ: «ماالمسئول عنها بأعلم من السائل». أي علمي وعلمك فيها سواء، فكما أنك لاتعلمها فأنًا كذلك لاأعلمها، ولهذا من ادُّعي علم الساعة فهو مكذِّب للقرآن، ومكذِّب للسنة، ومكذِّب لإجماع المسلمين وخارج عن المسلمين.

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَسْألونك عن السَّاعة أيَّان مُرسَاها قل إنما علمها عند ربي لايجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾. [سورة الأعراف، الآية: ١٨٧]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وعنده علم الساعة وإليه ترجعون﴾، [سورة الزخرف، الآية: ٨٥]. وتقديم الخبر في قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾، [سورة الزخرف، الآية: ٨٥]. يفيد الحصر، لأن من طرق الحصر تقديم ماحقه التأخير.

ومن صدَّق من ادَّعى علم الساعة فهو كافر أيضًا، لأن من صدَّق من يكذب بالقرآن أو بالسنة فقد كذَّب القرآن والسنة، وعلى هذا فلا يمكن أن نصدِّق شخصًا يدَّعي أنه يعلم متى تكون الساعة، ومن صدَّقه فهو كافر لتكذيبه الكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

لكن هل للساعة علامات؟

فالجواب: نعم قال ـ تعالى ـ: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهُم بغتة فقد جاء أشراطُها فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾.

[سورة محمد، الآية: ١٨]

ثانيًا: نزول الغيث:

﴿وينزل الغيث﴾ وهنا لم يقل يعلم نزول الغيث، بل قال: ﴿وينزل الغيث﴾، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]وإذا كان تنزيل الغيث ليس لأحد سوى الله، فعلم نزوله ليس لأحد سوى الله ـ عز وجل ـ.

ولكن قد يقول قائل: ماالحكمة في أن الله ـ عز وجل ـ قال في الساعة: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]وفي الغيث قال: ﴿وينزِّل الغيث﴾، دون أن يقول: ويعلم نزول الغيث؟ مع أن عدم العلم بنزول الغيث مستفاد من كون الذي ينزِّل الغيث هو الله وحده، فإذا كان الذي ينزل الغيث هو الله وحده لزم منه ذلك أنه لايعلم أحد نزول الغيث إلا من ينزله؟.

لكن الحكمة والله أعلم أن الذي ينفع الناس ويستفيد الناس منه ويلمسونه بأيديهم هو الغيث وهو الذي يكون مفتاحًا لحياة الأرض.

إذن لايعلم متى ينزل المطر إلا الله، لأن الذي ينزل المطر والغيث هو الله.

لكن يرد علينا أننا نسمع في الإذاعات، يقولون: سينزل غدًا مطر في جهات معينة، فهل هذا ينافي أن علم نزول الغيث خاص بالله؟.

فالجواب: أن هذا يشكل على كثير من الناس، فيظن أن هذه التوقعات ـ التي تذاع في الإذاعات ـ يظن أنها تعارض قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾، [سورة الأنعام، الآية: ٥٩].

والحقيقة أنها لاتعارض ذلك، لأن علمهم بهذا علم مستند إلى محسوس لا إلى غيب، وهذا المحسوس هو أن الله ـ عز وجل ـ حكيم، كل شيء يقع له سبب، فالأشياء مربوطة بأسبابها، فقد تكون الأسباب معلومة لكل أحد، وقد تكون معلومة لبعض الناس، وقد تكون غير معلومة لأحد، فإننا لانعلم سبب كل شيء وحكمة كل شيء، المطر إذا أراد الله ـ عز وجل ـ إنزاله، فإن الجو يتغير تغيرًا خاصًا، يتكون معه السحاب، ثم نزول المطر، كما أن الحامل عندما يريد الله ـ عز وجل ـ أن يخرج منها الولد فإن الجنين ينشأ في بطنها شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الغاية، فهؤلاء عندهم مراصد دقيقة، تلامس الجو، ويعرف بها تكيف الجو، فيقولون إنه سيكون مطرًا، ولهذا نجدهم لايتجاوز علمهم أكثر من ثمان وأربعين ساعة هذا أكثر ماسمعت، وإن كان قد قيل إنهم وصلوا إلى أن يعلموا مدى ثلاثة أيام، على كل حال فعلمهم محدود، لأنه مبنى على أسباب حسيَّة لاتدرك إلا بواسطة هذه الآلات، ونحن مثلاً بحسنا القاصر إذا رأينا السماء

ملبدًا بالغيوم، ورأينا هذا السحاب يرعد ويبرق، فإننا نتوقع أن يكون ذلك مطرًا، هم كذلك يتوقعون إذا رأوا الجو تكيفًا معينًا يصلح معـه أن يكون المطر وحينئذ لا معارضة بين الآية وبين الـواقع، على أنهم أيضًا يتوقعون توقعًا فربما يخطئون وربما يصيبون.

ثالثًا: ويعلم مافي الأرحام:

أولاً: قوله ـ تعالى ـ: ﴿يعلمُ مافي الأرحام﴾، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]. ما اسم موصـول يفيد العموم، وتعلق العلم بهذا العام هو تعلق عام أيضًا، فعلم مافي الأرحام لا يقتصر على علم كونه ذكرًا، أو أنثى، واحدًا أم متعددًا، بل علم مافي الأرحام لايقتصر على علم كونه ذكرًا أو أنثى، واحدًا أم متعددًا، بل علم مافي الأرحام أشمل من ذلك، فهو يشمل كونه ذكرًا أو أنثى، يشمل كونه واحدًا أو متعددًا، يشمل يخرج حيًا أو يخرج ميتًا، يشمل أن هذا الجنين سيبقى مدة طويلة في الدنيا أو مدة قصيرة، يشمل أن هذا الجنين سيكون ذا مال كثير أو فقر مدقع، يشمل أن هذا الجنين سيكون عالمًا أو جاهلاً، فكل مايتعلق بهذا الجنين يدخـل في قولـه: ﴿ويعلمُ مافي الأرحـام﴾، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]. فهو شامل عام خاص بالله ـ تعالى ـ.

ولكن يشكل على هذا أنه في عصرنا الحاضر توصَّل الطب إلى أن يعلم أن مافي بطن هذه الأنثى ذكر أو أنثى فهل يبقى معارضة في الآية؟ فالجواب: أنه ليس هناك معارضة للآية، لأنهم لايعلمون أنه ذكر أو أنثى إلا بعد أن يكون ذكرًا أو أنثى، أما قبل ذلك فلا يستطيعون العلم بأنه ذكر أو أنثى إلا بعد أن يكون ذكرًا أو أنثى، أما قبل ذلك فلا يستطيعون العلم بأنه ذكر أو أنثى، وإذا كان ذكرًا أو أنثى وخُلق ذكرًا أو خلق أنثى فإنه يكون من عالم الغيب عند أكثر الناس، ويكون من عالم الشهادة عند من يحصل له العلم بذلك، فالملك مثلاً يرسله الله ـ تعالى ـ إلى الرحم، ويعلمه الله ـ عز وجل ـ أنه ذكرًا أو أنثى، يقول: يارب ذكر أو أنثى فيأمره الله ـ تعالى بما أراد، فصار هذا علم شهادة بالنسبة للملك، وقبل أن يكون ذكرًا أو أنثى فهو علم غيب حتى بالنسبة للملائكة.

إذن كونه يكون علم شهادة بواسطة تقدم الطب لا يعارض الآية الكريمة.

ثانيًا: ذكرنا أن علم مافي الأرحام لايختص بعلم كونه ذكرًا أو أنثى، ولكنه يشمل أكثر من ذلك، ولهذا لايمكن لأحد إلى يوم القيامة أن يقول هذا الجنين سوف يخرج ويبقى مدة طويلة أو

قصيرة، ويكون غنيًا أو فقيرًا، عالمًا أو جاهلاً، طويلاً، أو قصيرًا، لأن هذا كله أمره إلى الله ـ عز وجل ـ. وبهذا أتبين أن مايتحدث عنه الأطباء اليوم من إمكان معرفة الجنين، أنه ذكر أو أنثى لايعارض الآية.

وبهذه المناسبة أود أن أقول لكم كل ماجاء به القرآن، وصحت به السنة، فإنه لايمكن أن يعارض الواقع.

رابعًا: وماتدري نفس ماذا تكسب غدًا؟

وانظر إلى التعبير بقوله: ﴿**ماذا تكسب غدًا**﴾، [سورة لقمان، الآية: ٣٤]. فإن الإنسان قد يدري ماذا سيعمل غدًا، ولكنه لايدري هل سيكسب ذلك العمل أم لا. فلو أن شخصًا عنده عمل في المكتب، ومرتب شئونه، وقال غدًا أول شيء أعمله كذا وكذا؛ فإنه يكون قد علم ماذا يعمل غدا، ولكنه لايعلم هل سيكسب ذلك العمل ويحصل له أم لا، ولهذا قال سبحانه: ﴿**وماتدري نفس ماذا تكسب غداً**﴾.

فأنت قد تخطط العمل مستقبل كغد مثلاً، لكن لاتكسبه، فقد يحول بينك وبينه مانع من موت، أو مرض، أو شغل آخر ترى أنه أقدم منه أو ماأشبه ذلك.

خامسًا: وماتدري نفس بأي أرض تموت:

وصدق الله فلا أحد يستطيع أن يحكم بأنه سيموت في الأرض الفلانية، فقد يقول الإنسان أنا لن أخرج من بلدي فسأموت في بلدي، لكن هذا قد لايتم فأحيانًا يكون الإنسان في بلده لايخرج أبدًا منها، فيمرض، وتحدثه نفسه وتحدوه همته وعزيمته إلى أن يسافر للعلاج، فإذا وصل إلى البلد الذي قرر أن يتعالج فيه مات فور وصوله، وهذا موجود ويحدُث إذن فهو لايعلم بأي أرض يموت، ومن باب أولى أيضًا فإنه لايعلم في أي وقت يموت؛ لأن الإنسان يتصرَّف في مكانه، فربما يقول قائل: إذا أحسَّ بالموت ورأى أنه لاشفاء له مثلاً قال: اذهب إلى الأرض الفلانية وأموت فيها، فإذا كان لايعلم هذا فما بالك بالزمن الذي لايمكن تحديده أبدًا؟! فالذي لايعلم المكان لايعلم الزمان من باب أولى.

ولقد جرت مسألتان إحداهما أدركتها أنا، والثانية حُدثت بها من ثقة.

أما الأولى: فإنه كان راكبان على دباب ـ درَّاجة نارية ـ يمران بشارع فرعي، وهناك سيارة تمر بالشارع العام، فلما رأى صاحب السيارة هذا الدباب وقف من أجل أن يعبر الدباب،

والراكبان على الدباب لما رأيا السيارة وقفا لتعبر السيارة، فهذا تصرُّف سليم، لكن في خلال دقيقة أو دقيقتين تحرَّكت السيارة وتحرك الدبَّاب واصطدما، فمات أحد الراكبين، فبماذا نفسرٍّ هذه الواقعة؟

نفسرٍّها بأن هذا الرجل الذي مات بقي له من عمره دقيقتان أو دقيقة، لو شاء الله ـ عز وجل ـ لعبر كل من السيارة والدباب بسلام، أو لعبرا من أول ماالتقيا بسرعة وحصل الحادث، لكن حصل التوقف لمدة دقيقة أو دقيقتين من أجل أن يستكمل الأجل لهذا الذي مات، وهذه من آيات الله ـ عز وجل ـ قال النبي، ﷺ: **«إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها»**.

أما المسألة الثانية: فقد حدَّثني بها من أثق به، فقد كان الناس في السابق يأتون مكة عن طريق البر على الجمال وكان الناس في ذلك الوقت ينزلون جميعاً ويسيرون جميعاً، لأن البلاد غير آمنة تمامًا، يقول فخرج الحجاج إلى مكة، وكانوا يمشون في الريعان ـ أي الجبال والأودية ـ على حدود الحجاز من نجد، وكان أحد القوم معه أمه مريضة وهو يمرضها، فسار الناس من مكان نزولهم ليلًا، وهو جالس يُمرِّض أمه، ويمهد لها الفراش من أجل أن تنام على الراحلة مستقرة، ولما أكمل رحل المركب

لأمِّـه مشى، ولكنه أخطأ القوم، لأنهم تجاوزوا كثيرًا، يقول: فدخل في طريق جادة صغيرة مع أحد الريعان، وصار يمشي وهو يظن أنه على إثرهم حتى ارتفعت الشمس، وخاف على نفسه من العطش، فتبدى ـ ظهر ـ له خباء بدو ـ أي خيمة صغيرة ـ فاتَّجه إليها ووصل إليهم، وقال أين طريق الحجّاج؟ قالوا له: طريق الحجّـاج وراءك، لكن انـزل أنت والمـرأة معـك حتى تسـتريح ولذلك فنزل بأمه يقول فما أن وضع أمه على الأرض حتى فاضت روحها، سبحان الله العظيم، فمن يقول إن امرأة من القصيم تأتي إلى الحجاز إلى هذه الأماكن التي قد لايحلم أن يصل إليها، حتى تموت في هذا المكان؟! ﴿وماتدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾. [سورة لقمان، الآية: ٣٤]

هذه مفاتح الغيب التي لايعلمها إلا الله ـ عز وجل ـ. والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات